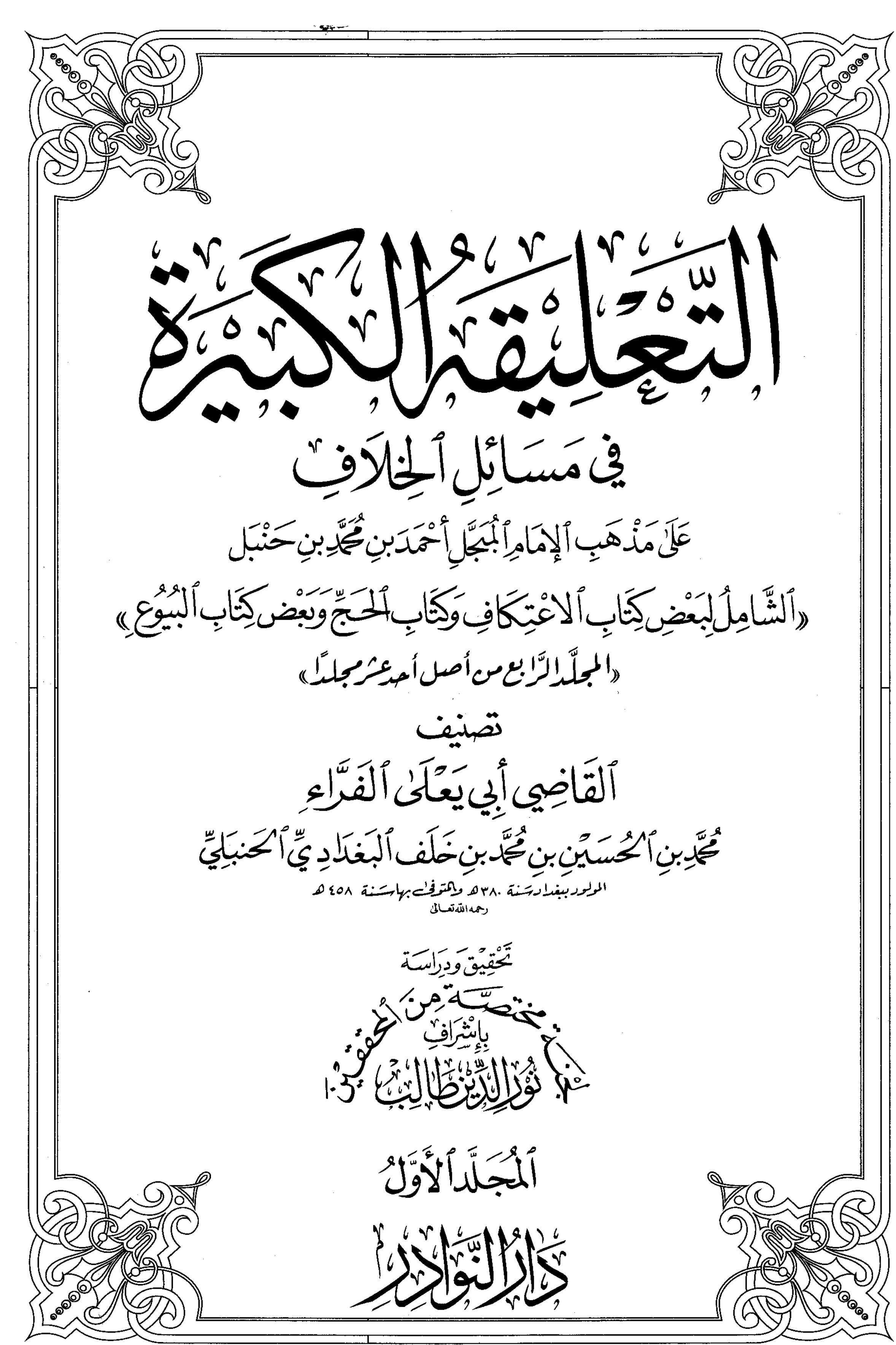


التعليقة الكبيرة

في مسائل الخلاف

على مذهب الإمام المبجل أحمد بن محمد بن حنبل

«الشامل لبعض كتاب الاعتكاف وكتاب الحج وبعض كتاب البيوع»

«المجلد الرابع من أصل أحد عشر مجلدًا»

تصنيف

القاضي أبي يعلى الفراء

محمد بن الحسين بن محمد بن خلف البغدادي الحنبلي

المولود ببغداد سنة ٣٨٠ هـ والمتوفى بها سنة ٤٥٨ هـ

رحمه الله تعالى

تحقيق ودراسة

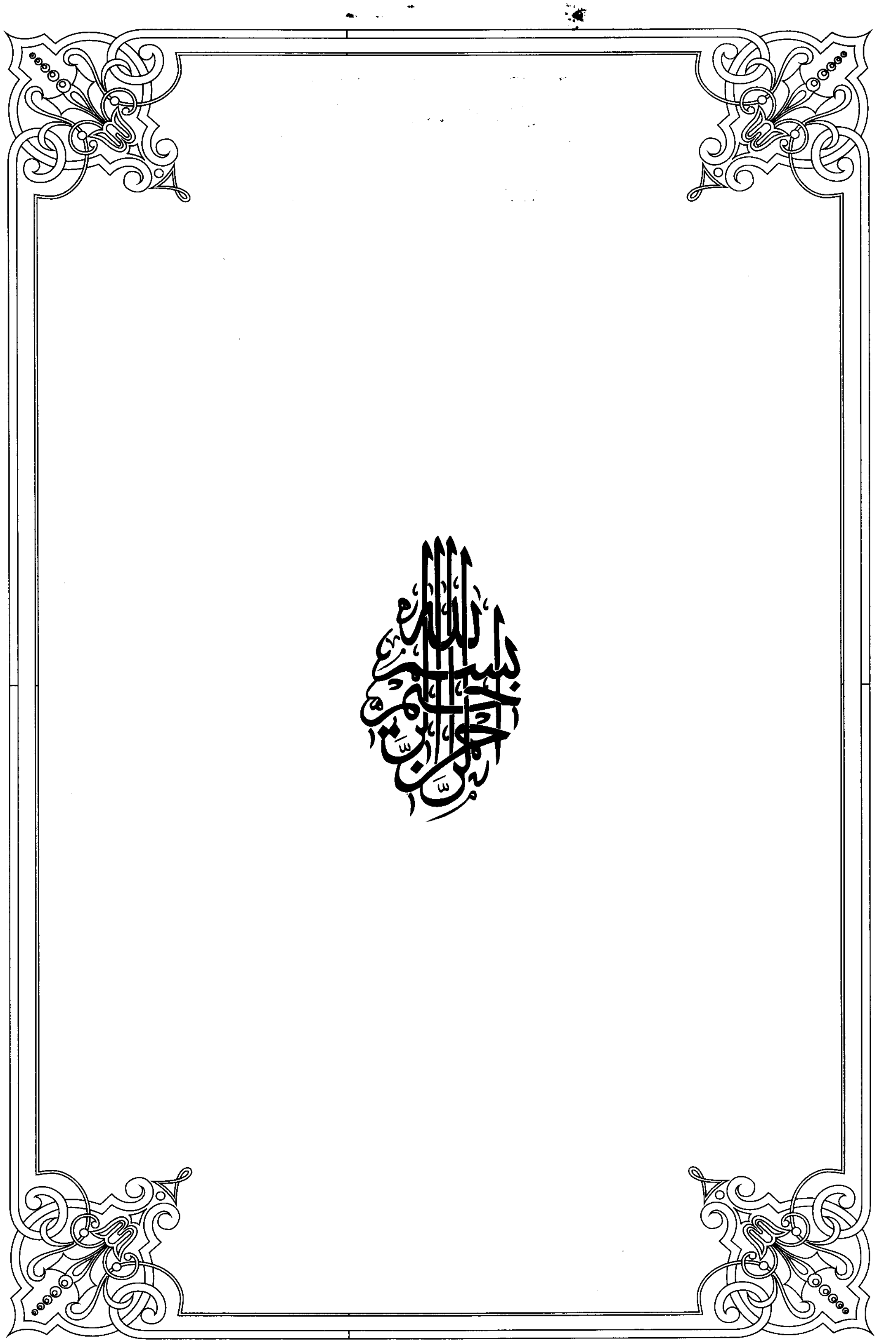
لجنة مختصة من المحققين

بإشراف

نور الدين طالب

المجلد الأول

دار النوادر


بسم الله الرحمن الرحيم



*** مدح ابن عقيل لأبي يعلى:**

قال فيه ابنُ عقيل: لم أدركْ فيما رأيتُ من العلماء ـ على اختلاف مناهجهم ـ مَنْ كمُلت له شرائطُ الاجتهاد المطلَق إلا ثلاثةً: أبا يعلى بنَ الفراء، وأبا الفضل بنَ الهمذاني الفرضي، وأبا النضر بنَ الصباغ.

«طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (١٢٣/٥)

*** كلام ابن تيمية عن التعليقة:**

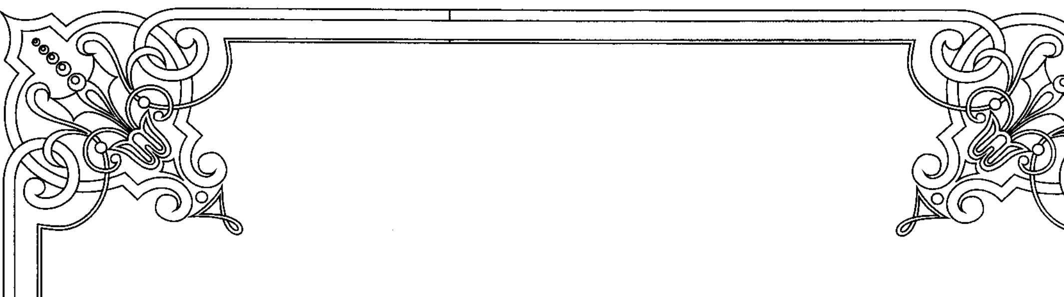
أرسل شيخُ الإسلام ابن تيمية من سجنه يطلب من إخوانه إرسال تعليق القاضي أبي يعلى، فقال: وترسلون ـ أيضاً ـ من تعليق القاضي أبي يعلى الذي بخط القاضي أبي الحسين إن أمكن الجميع، وهو أحدَ عشرَ مجلداً، وإلا، فمن أوله مجلداً أو مجلدين أو ثلاثة، وذكر كتباً يطلبها منهم.

«العقود الدرية» (ص: ٣٠١)

التَّعلِيقَةُ الكُبرَى

في مَسَائِلِ الخِلَافِ

(١)



ٱلطَّبْعَةُ ٱلأُولَىٰ
١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م

ردمك: ٨ـ ٤٥ ـ ٤١٨ ـ ٩٩٣٣ ـ ٩٧٨ : ISBN
9789933418458



سورية ـ لبنان ـ الكويت

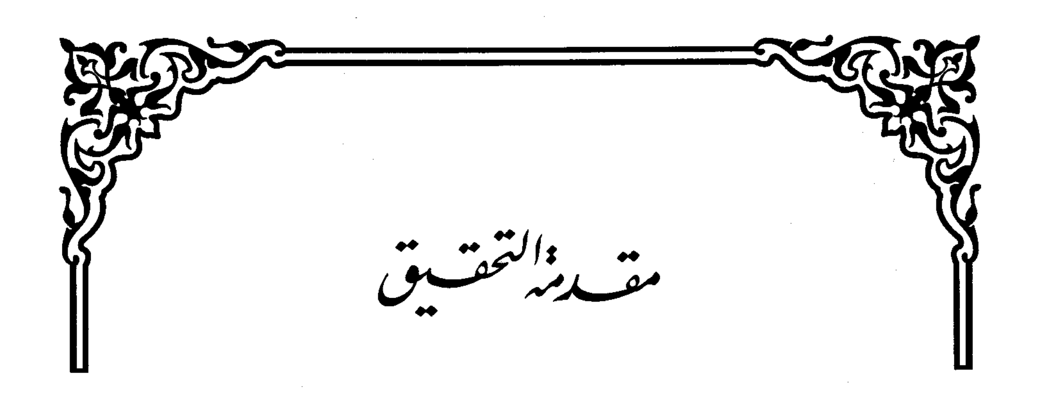
مُؤسَسَة دَارِ ٱلنَّوَادِر م.ف ـ سُورية * شَرِكَة دَار ٱلنَّوَادِرِ ٱللُّبْنَانِيَّة ش.م.م ـ لُبْنَان * شَرِكَة دَار ٱلنَّوَادِرِ ٱلكُوَيْتِيَّةِ ـ ذ.م.م ـ ٱلكُوَيْت

سورية ـ دمشق ـ ص. ب: ٣٤٣٠٦ ـ هاتف: ٢٢٢٧٠٠١ ـ فاكس: ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)
لبنان ـ بيروت ـ ص. ب: ١٤/٥١٨٠ ـ هاتف: ٦٥٢٥٢٨ ـ فاكس: ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)
الكويت ـ حولي ـ ص. ب: ٣٢٠٤٦ ـ هاتف: ٢٢٦٣٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

أَسَّسَهَا سَنَة: ٢٠٠٦م



المدير العام والرئيس التنفيذي



مقدمة التحقيق

إن الحمد لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعـوذُ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئاتِ أعمالنا، من يهدِه اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضلِلْ فلا هادي له.

وأشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسوله.

اللهمَّ لا سهلَ مالم تُيسِّره، ولا صعبَ إن يَسَّرته.

أمّا بعد:

فإن فن الخلاف: علمٌ يعرف به كيفيةُ إيراد الحجج الشرعية، ودفع الشبهة وقوادح الأدلة الخفية، بإيراد البراهين القطعية، وهو الجدل الذي هو من أقام المنطق، إلا أنه خُصَّ بالمقاصد الدينية.

وقد يعرَّف بأنه: علم يُقتدر به على حفظ أيِّ وضع، وهدمِ أيِّ وضعٍ كان بقدر الإمكان.

ولقـد كان الإمام الحبرُ، قاضي القضاة، شيخُ الحنابلة، وعلامـةُ

الزمان، القاضي أبو يعلى بنُ الفراء من أقعدِ الأئمةِ بهذا الفن، حتى قال عنه العلامة ابنُ بدران: وأجمعُ ما رأيتُه لأصحابنا في هذا النوع: «الخلاف» للقاضي أبي يَعْلى[1].

فقد برع في علم من أشقِّ العلوم، وهـو علم الخلاف؛ إذ يقضي هذا العلم أن يتمكن العالـمُ من مذهبه، والإحاطة بأصوله وفروعه، ثم يتمكن من مذهب غيـره وأدلتهم، ثم يقوم بعد ذلك بهدم وإبطال حجة المخالفين، ونصرة مذهبه، وهو أقوى علماء الحنابلة في هذا الجانب؛ كما شهد له بهذا ابن بدران في «المدخل»[2].

ومصنفاته ـ رحمه الله ـ مليئة بالاحتمالات والاختيارات والوجوه.

ومن أجود ما وقفنا عليه في هذا الباب من مصنفاتـه كتابـهُ «التعليقة الكبيرة»، وهو كتاب ضخم في أحد عشر مجلداً، كما أفاد شيخ الإسلام ابنُ تيمية ـ رحمه الله ـ[3]، وصلَنا قطعة منه اشتملت على المجلد الرابع فقط، يتضمن مسائلَ من كتـاب: الاعتكاف، والحج، وبعض البيـوع بلغت ثلاث مئة وإحدى وثلاثين مسألة.

وتبرز أهمية هذه القطعة؛ بكونِ مؤلفِها الإمامِ القاضي أبي يعلى بن

---

(١) انظر: «المدخل» (ص: ٤٥٠).

(٢) «القاضي أبو يعلى وكتابه الأحكام السلطانية» للدكتور عبد القادر أبو فارس (ص: ١٧٨ ـ ١٧٩).

(٣) انظر: «العقود الدرية» لابن عبد الهادي (ص: ٣٠١).

الفراء، الذي قال فيه ابنُ عقيل: لم أدركْ فيما رأيتُ من العلماء ـ على اختلاف مناهجهم ـ مَنْ كمُلت له شرائطُ الاجتهاد المطلَق إلا ثلاثةً: أبا يعلى بنَ الفراء، وأبا الفضل بنَ الهمذاني الفرضي، وأبا النضر بنَ الصباغ[١].

وقد أرسل شيخُ الإسلام ابن تيمية من سجنه يطلب من إخوانه إرسال تعليق القاضي أبي يعلى، فقال: وترسلون ـ أيضاً ـ من تعليق القاضي أبي يعلى الذي بخط القاضي أبي الحسين إن أمكن الجميع، وهو أحدَ عشرَ مجلداً، وإلا، فمن أوله مجلداً أو مجلدين أو ثلاثة، وذكر كتباً يطلبها منهم[٢].

ولو قُدِّر لهذا الكتاب أن يُحفظ على مر السنين، لكان مرجعَ كل فقيه حنبلي، فمؤلفُه إمام مقدَّم، وهو شيخ الحنابلة في عصره، إليه يُرجَع في الرواية والتصحيح والترجيح على مذهب الإمام أحمد، والكتاب نفسُه نبعٌ استقى منه علماء الحنابلة على مرِّ الزمان، فنقلوا عنه راضين به، مطمئنِّين إليه.

وقد وجدنا في القطعة التي وصلتنا من الفوائد ما يحثُّ على نشرها، لا سيَّما ما ذكره من روايات عن الإمام أحمد، لم نجد أكثرها في شيء مما بين أيدينا من المصادر، كما أن مطالعه يستطيع أن يلتقط من فوائد

---

(١) نقله تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (٥/ ١٢٣).

(٢) «العقود الدرية» (ص: ٣٠١).

هذا الكتاب دُرراً، ويشحذ بمُحاكماته فِكْراً، ويزداد من فقهه نُبلاً، ومن فيضه علماً.

وقد وفقنا الله للحصول على نسختين خطيتين لهذه القطعة:

أولاهما: نسخة دار الكتب المصرية.

والثانية: نسخة فيض الله أفندي بتركيا.

ولعلهما منسوختان عن أصل واحد كما تبين لنا، وسنوضحه في وصف النسخ الخطية، وقد كثر فيهما الخطأ والسقط؛ إذ صححنا فيهما مواضع كثيرة، وزدنا على النص زيادات ضرورية مما لا يقوم النص إلا بها، وجعلنا كلَّ ذلك بين معكوفتين، كما سنبينه في منهج التحقيق، وكان ذلك كلُّه بعد تأمل وتفكُّر طويلين، مما نرجو أن يكون مكافَأً عليه بالمنِّ والإحسان من الخالق المنَّان، إنه وليُّ ذلك، والقادرُ عليه(١).

---

(١) ومما يناسب إيراده هنا ما قاله الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس في رسالته الدكتوراه المقدمة سنة (١٩٧٤م) بجامعة الأزهر، والموسومة بـ: «القاضي أبو يعلى وكتابه الأحكام السلطانية» (ص: ٢٠٠) حول النسخة الخطية لكتاب التعليقة: «وهذه النسخة ـ أي: نسخة دار الكتب المصرية ـ خطها رديء للغاية، تكثر فيها الفراغات، والكلمات غير المقروءة بسبب عدم ظهورها؛ مما تُسبب الإزعاجَ الشديد للقارئ، ويجد صعوبة بالغة عند قراءة صفحة واستيعابها في أحيان كثيرة، بالإضافة إلى أنها متعبة للبصر.

قال: وهنا شعرت حقاً بالمشاق الكبيرة التي يواجهها هذا الجندي المجهول «المحقق»، وأيقنت أن تحقيق أي كتاب أصعبُ بكثير من التأليف ابتداءً، =

وإن كان من فضل يُسند في هذا العمل، فهو إلى الباري ـ سبحانه وتعالى ـ الذي منَّ بالتوفيق والإعانـة في نشر هذه القطعة النادرة المثيل، ثم ما تفضل به من تهيئة اللجنة العلمية للقيام بهـذا العمل المبرور، وأخص بالذكر منهم: الأستاذين الباحثين الفاضلين:

ـ الأستاذ محمد عبد الحليم بَعَّاج.

ـ والأستاذ محمد خلوف العبدالله.

جزاهما الله خير الجزاء، وأثابهما جميل العطاء، آمين.

هذا وصلَّى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم، والحمدُ لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

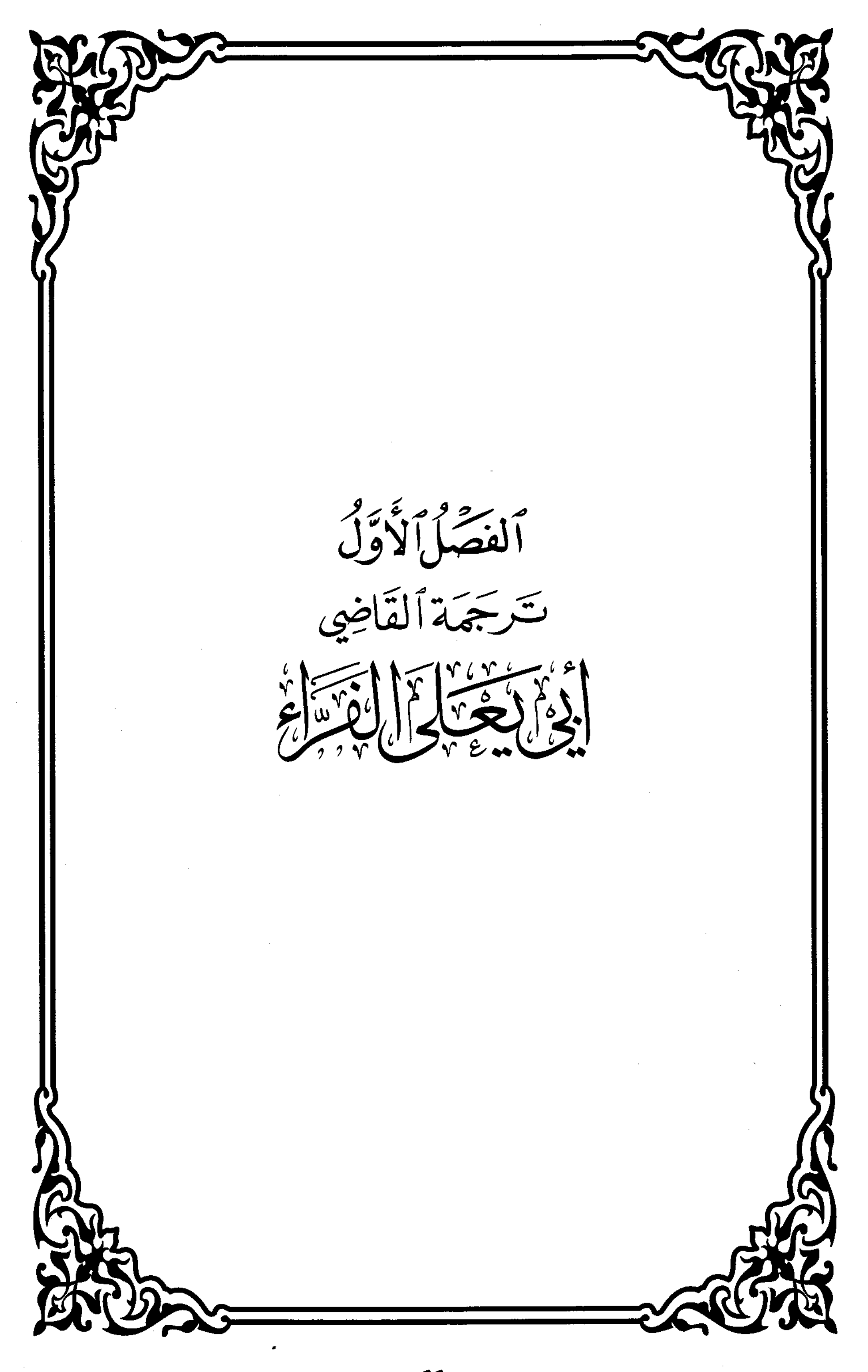
حَرَّرَهُ
نُورُ الدِّينِ طَالِب
غَفَرَ اللهُ لَهُ. آمِين
دِمَشْق - دُومَة
٩ جمادى الآخر ـ ١٤٣١هـ

❒❒❒

= ويستغرق من الوقت والجهد أضعافَ أضعافِ ما يستغرق التأليف، لاسيما إذا رُزق المحقق بنسخة كهذه النسخة التي استغرقتُ في قراءة شيء منها جهداً ووقتاً طويلاً، هذا بالإضافة إلى أعمال أخر يقوم بها المحقق، فجزاه الله عن المسلمين خير الجزاء، انتهى».

قلت: فتأمل ذلك.



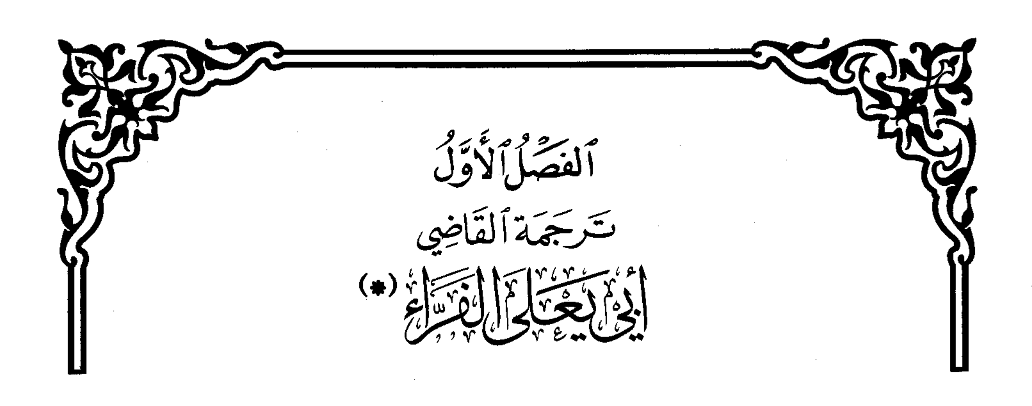


الفصل الأول

ترجمة القاضي

أبي يعلى الفراء





الفصل الأول
ترجمة القاضي
أبي يعلى الفراء (*)

هو محمدُ بنُ الحسينِ بنِ محمدِ بنِ خلفِ بنِ أحمدَ بنِ الفراء، أبو يعلى.

كان عالِمَ زمانه، وفريدَ عصره، ونسيجَ وَحْدِه، وقريعَ دهره، وكان

(*) نقلاً عن «طبقات الحنابلة» لابنه أبي الحسين (٣/ ٣٦١)؛ فإنه من أحسن من ترجم له ـ رحمه الله ـ.

وانظر مزيد مصادر عن ترجمته في: «تاريخ بغداد» (٢/ ١٥٦)، و«تاريخ الإسلام» (٣٠/ ٤٥٣)، و«سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٨٩)، و«العبر في خبر من غبر» ثلاثتها للذهبي (٣/٢٤٥)، و«البداية والنهاية» لابن كثير (١٢/ ٤٦)، و«النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٥/ ٧٨)، و«المقصد الأرشد» لابن مفلح (٢/ ٣٩٥)، و«المنهج الأحمد» للعُلَيمي (٢/ ٣٥٤)، و«شذرات الذهب» لابن العماد (٣/ ٢٠٦)، و«كشف الظنون» لحاجي خليفة (١/ ٣، ٤٢٤، ٥٦٤)، (٢/ ١٤١٦، ١٤٢١، وغيرها)، و«الأعلام» للزركلي (٦/ ٩٩)، و«معجم المؤلفين» لكحالة (٩/٢٥٤)، و«معجم مصنفات الحنابلة» للطريقي (٢/ ٣٧).

وانظر: «القاضي أبو يعلى الفراء وكتابه: الأحكام السلطانية» للدكتور محمد عبد القادر أبو فارس.

له في الأصول والفروع القدمُ العالي، وفي شرف الدين والدنيا المحلُّ السامي، والخطرُ الرفيع عند الإمامين: القادرِ، والقائمِ رضي الله عنهما.

وأصحابُ الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ له يتبعون، ولتصانيفه يدرسون ويدرِّسون، وبقولِه يُفتون، وعليه يعوِّلون، والفقهاء ـ على اختلاف مذاهبهم وأصولهم ـ كانوا عنده يجتمعون، ولمقاله يسمعون ويطيعون، وبه ينتفعون، وبالائتمام به يقتدون.

وقد شوهد له من الحال ما يغني عن المقال، لا سيما مذهبِ إمامنا أبي عبدالله أحمدَ بنِ محمدِ بنِ حنبلٍ، واختلافِ الروايات عنه، وما صح لديه منه، مع معرفته بالقرآن وعلومه، والحديث والفتاوى والجدل، وغير ذلك من العلوم، مع الزهد والورع، والعفة والقناعة، وانقطاعه عن الدنيا وأهلها، واشتغاله بسَطْر العلم وبثِّهِ، وإذاعتِه ونشرِه.

وكان والده أبو عبدالله أحدَ شهود الحضرة بمدينة السلام، حضر عنده في داره محمدُ بنُ صبر قاضي الإمام الطائع لله، فشهد عنده في خلافة الطائعِ لله، ولم نسمع أن أحداً قصدَهُ من يشهد بين يديه، فشهد عنده في دارٍ سواه، ولم يكن يومئذ قاضي قضاة، وكان ابنُ معروف معزولاً، وقد أُهل ابنُ صبر لقضاء القضاة، وقد شوهد ذلك في درج بخط ابن حاجب النعمان، لما ذكر شهودَ بابِ الطاق.

وكان جدي أبو عبدالله قد درس على أبي بكر الرازي مذهب أبي حنيفة، وغيرُ خافٍ محلُّ أبي بكر الرازي، وأن المطيعَ لله، ومعزَّ الدولة خاطباه لِيَلِيَ قضاء القضاة، فامتنع، وكان محلُّ جدي أبي عبدالله منه أنه

مرض مئة يوم، فعاده أبو بكر الرازي خمسين يوماً، يعبُر إليـه من الجانب الغربي بالكَرْخ، من دربِ عبدةَ إلى باب الطاق بالجانب الشرقي، فلما عوفي، وحضر عنده في مجلسه، قال له أبو بكر الرازي: يا أبا عبدالله! مرضت مئة يوم، فعدناك خمسين يوماً، وذاك قليل في حقك.

وتوفي في سنة تسعين وثلاث مئة. وكان سن الوالد في ذلك الوقت عشرَ سنين إلا أياماً. وكان وصيَّـه رجلٌ يعرف بـ «الحربي» يسكن بدار القَزّ، فنقل الوالد السعيد من باب الطاق إلى شارع دار القز، وفيه مسجد يصلي فيه شيخ صالح، يعرف بـ «ابن مقدحـة» المقرئ، يقرئ القرآن، ويلقن من يقرأ عليه العبارات من «مختصر الخرقي»، فلقن الوالـدَ السعيد ما جرت عادتُه بتلقينه من العبادات، فاستزاده الوالدُ السعيد، فقال لـه ذلك الشيخ: هذا القدر الذي أُحسنه، فإن أردت زيادة عليه، فعليك بالشيخ أبي عبدالله بن حامد؛ فإنه شيخ هذه الطائفـة؛ ومسجدُه بباب الشعير، فمضى الوالد إليه، وصحبه إلى أن توفي ابنُ حامد في سنة ثلاث وأربع مئة، وتفقه عليه، وبرع في ذلك، وكـان ذلك من لطف الله تعالى بـه، وإرادته تعالى حفظَ هذا المذهب.

وقد ذكرنا في «أخبار ابن حامد» سؤالَ محمد بن علي المقرئ له عند خروجه إلى الحج سنة اثنتين وأربع مئة: على من ندرس؟ وإلى من نجلس؟ فقال له: إلى هذا الفتى، وأشار إلى القاضي أبي يعلى. وقد كان لابن حامد أصحابٌ كُثُرٌ، فتفرَّس في الوالد السعيد ما أظهره الله ـ تبارك وتعالى ـ عليه، روى أبو هريـرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا

فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ؛ فإِنَّه يَنْظُرُ بِنُوْرِ اللهِ ﷻ».

* **فأما مولده:** فولد لتسع وعشرين، أو ثمان وعشرين ليلةً خلتْ من المحرم سنة ثمانين وثلاث مئة.

* **وأما شيوخه:** فأولُ سماعه للحديث سنة خمس وثمانين وثلاث مئة، وسمع من أبي الحسين السكَّري، عن أحمد بن عبد الجبار الصوفي، عن يحيى بن معين، وغيرِه.

وسمع ـ أيضاً ـ من جماعة عن البغوي، وقد حدَّث عن البغوي عن أحمد بن حنبل.

وسمع من أبي القاسم موسى بن عيسى السراج، عن البغوي، وغيرِه.

ومن أبي الحسن عليِّ بنِ معروف، عن البغوي، وابنِ صاعد، وابنِ أبي داود، وغيرِهم.

ومن أبي القاسم بن حبابة، عن البغوي، عن عليِّ بنِ الجَعْد، عن شعبة، وغيرِه.

ومن أبي الطيب بن المنتاب، عن البغوي، وابن صاعد، وغيرِهما.

ومن أبي طاهر المخلص عن البغوي، وابن صاعد، وغيرهم.

ومن أبي القاسم عيسى بن علي الوزير، عن البغوي، وغيرِه.

ومن أبي القاسم بن سويد، عن ابن مجاهد، وابن الأنباري، وغيرِهما.

ومن أبي القاسم الصيدلاني، عن ابن صاعد، وغيرِه. ومن أم الفتح بنتِ القاضي أبي بكـر أحمـدَ بنِ كامل، ومن جدِّه لأمـه أبي القاسم بنِ جنيقا، ومن أبي عبدالله، عن أبي بكر محمدِ بنِ إسحاقَ بنِ عبدِ الرحيمِ السوسِّي، وغيرِه، ومن أبي محمـدٍ عبدِالله بنِ أحمدَ بنِ مالكٍ البيع بانتقاء ابن أبي الفوارس، ومن القاضي أبي محمد الأكفاني، ومن نصر بن الشاه، ومن أبي عبدالله النيسابوري، ومن أبي الحسن الحمامي، ومن أبي الفتح ابن أبي الفوارس.

وسمع بمكةَ، ودمشقَ، وحلبَ في آخرين.

وابتدأ بالتصنيف والتدريس بعد وفاة شيخه ابن حامد، وحج سنة أربع عشرة وأربع مئة، وعاد إلى تدريسه وتصنيفه في الفروع والأصول والآداب، وانقطاعه عن الدنيا، وما يؤول إلى الذهاب.

ومن بحثَ عن أخلاقـه وطرائقه وأخباره، لـم يَخْفَ عليه موضعُه ومحلُّه، ولو بالَغْنـا في وصفـه، لكنـا إلى التقصير فيما نذكره من ذلك أقربَ؛ إذ انتشر على لسان الخطير والحقير ذكرُ فضله، سوى ما يضاف إلى ذلك من الجلالـة والصبر على المكـاره، واحتمالـه لكل جريرة إن لحقته من عدو، وزلل إن جرى من صديق، وتعطُّفه بالإحسان على الكبير والصغير، واصطناع المعروف إلى الداني والقاصي، ومداراتـه للنظيـر والتابع، جارياً على سنن الإمام أحمد رضي الله عنه حذوَ القُذَّة بالقذة.

ولم يزل على طول الزمان يزداد جلالة ونبلاً، وعلماً وفضلاً، قصده

القاضي الشريف أبـو علي بن أبي موسى دفعات، إحداها: في جمادى الأولى سنة إحدى ـ أو اثنتين ـ وعشرين وأربع مئـة؛ ليشهد عند قاضي القضاة أبي عبدالله بن ماكولا، ويكون ولدُ القاضي أبي علي أبو القاسم ـ الملقب بـ «زين الدين» ـ له تابعاً، ومتبركاً بشهادته، فأبى عليه الوالد السعيـد أشدَّ الإبـاء، فمضى ابنُ أبي موسى إلى أبي القاسم بن بشران، وسأله أن يشهد مع ولده، وقد كان ابن بشران قد ترك الشهادة قبل ذلك، فأجابه إلى ذلك، فشهد ابن بشران، ومعه زينُ الدين بديوان الخلافـة، وكانت وفاة القادر بالله في حادي عشر من ذي الحجة من هذه السنة، ثم توفي القاضي أبو علي سنة ثمان وعشرين.

وكان من قضاء الله وقـدره أن تكررت سؤالات قاضي القضاة أبي عبدالله بن ماكـولا للشيخين أبي منصور بن يوسف، وأبي علي بن جردة، يسألان الوالد السعيد أن يشهد عنده؛ لعلمه بمحبتهما لـه، واعتقادهما بمذهبه، وانضاف إلى ذلك خطابُ رئيس الرؤساء نوبةً بعد أخرى، فأجاب إلى ذلك، وشهد عنده، مع كراهتـه للشهادة، وكان ابن ماكولا معظِّماً له، ومبجِّلاً ومكِّرماً، ما لم يكن يفعله لغيره، وكان قد حضر الوالد السعيد ـ قدس الله روحه ـ في سنة اثنتين وثلاثين وأربع مئة في دار الخلافة في أيام القائم بأمر الله ـ رضوان الله عليه ـ مـع الحَجمِّ الغفير، والعدد الكثير من أهل العلم، وكان صحبته الشيخ الزاهد أبو الحسن القزويني؛ لفساد قولٍ جرى من المخالفين لما شاع قراءة كتاب «إبطال التأويلات»، فخرج إلى الوالد السعيد من الإمام القائم بأمر ـ الله رضوان الله عليهم ـ الاعتقاد

القادرِي في ذلك بما يعتقد الوالد السعيد، وكان قبل ذلك قد التمس منه حمل كتاب «إبطال التأويلات» ليتأمل، فأعيد إلى الوالد، وشكر له تصنيفه، وذكر بعض أصحاب الوالد السعيد: أنه كان حاضراً في ذلك اليوم، قال: رأيت قارئ التوقيعِ الخارجِ من القائم بأمر الله ـ رضوان الله عليه ـ قائماً على قدميه، والموافق والمخالف بين يديه، ثم أُخذت في تلك الصحيفة خطوطُ الحاضرين من أهل العلم، والفقهاءِ على اختلاف مذاهبهم، وجُعلت كالشرط المشروط، فأولُ من كتب: الشيخُ الزاهدُ القزويني: هذا قول أهل السنة، وهو اعتقادي، وعليه اعتمادي، ثم كتب الوالد السعيد بعده، وكتب القاضي أبو الطيب الطبري، وأعيانُ الفقهاء، من بين موافق ومخالف، فبلغني أن أبا القاسم عبدَ القادر بنَ يوسف قال ـ بعد خروجه عن ذلك المجلس ـ: روي عن النَّبيِّ ﷺ: أنه قال: «لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»، فلما أرادوا النهوض من ذلك المجلس، التفت ابن القزويني الزاهد إلى الوالد السعيد، فقال له: كما في نفسك؟ فقال له الوالد السعيد: الحمد لله على ما تفضل به من إظهار الحق، فقال له ابن القزويني الزاهد: لا أقنع بهذا، وأنا أحضر بجامع المنصور، وأُملي أحاديثَ الصفات، فحضر القزوينيُّ الزاهدُ جُمَعاً مترادفاتٍ بجامع المنصور، أملى أخبارَ الصفات، ناصراً لما سطَّره الوالد السعيد، ثم توفي ابنُ القزويني ليلة الأحد، الخامس من شعبان، سنة اثنتين وأربعين وأربع مئة، وصُلِّي عليه بين الحربية والعتابيين، مما يلي الخندق، وحضره عالَمٌ كثير.

وجرى تشغيب بين أصحابنا وبين المخالفين لنا في الفروع، فحضر الوالد السعيد سنة خمس وأربعين في دار الخلافة مجلسَ أبي القاسم عليِّ ابنِ الحسن رئيسِ الرؤساء، ومعه جَمٌّ غفير، وعدد كثير من شيوخ الفقهاء، وأماثلِ أهـلِ الدين والدنيـا، فقال رئيس الرؤساء - في ذلـك اليوم على رؤوس الأشهاد -: القرآنُ كلام الله، وأخبارُ الصفات تُمَرُّ كمـا جاءت، وأصلحَ بين الفريقين، ففاز الوالد السعيد بخير الدارين - إن شاء الله -، ولو تتبعنا هذه المقامات، لطالت الحكايات.

وكان من قضاء الله تعالى أن توفي قاضي القضاة ابنُ ماكولا، فتبين للإمام القائم بأمر الله احتياج الحريم إلى قاض عالم زاهد، فراسل رئيس الرؤساء بالشيخ أبي منصور بن يوسف وبغيره إلى الوالد السعيد، وخوطب ليليَ القضاءَ بدار الخلافة والحريم أجمع، فامتنع من ذلك، فكرر عليه السؤال، فلما لم يجد بداً من ذلك، اشترط عليهم شرائـط، منهـا: أنه لا يحضر أيامَ المواكب الشريفـة، ولا يخرج في الاستقبالات، ولا يقصد دار السلطان، وفي كل شهر يقصد نهر المعلى يوماً، وبابَ الأزج يوماً، ويستخلف من ينوب عنه في الحريم، فأُجيب إلى ذلك.

وقد كان ترشح لولايـة القضاء بالحريم القاضي أبو الطيب الطبري، فعُدل عنه إلى الوالد السعيد، وقُلِّد القضاء في الدماء والفروج والأموال، ثم أُضيف إلى ولايته بالحريم: قضاءُ حران وحلوان.

واستناب فيهما، فأحيا الله بالوالد السعيد من صناعة القضاء ما أُميت من رسومها، ونَشَرَ ما طُوي من أعلامها، فعاد الحكم بموضعه جديداً،

والقضاءُ بتدبيره رشيداً، وكان كما قال فيه تلميذُه عليُّ بنُ نصرٍ العكبريُّ لما وليَ الوالدُ القضاءَ:

رَفَــــعَ اللهُ رَايَــــةَ الإسْــــلاَمِ
حِــيْنَ رُدَّتْ إِلَــى الأَجَــلِّ الإمَــامِ

التَّقِـــيِّ النَّقِـــيِّ ذِيْ المَنْطِـــقِ الــصَّا
ئِـــبِ فـــي كُـــلِّ حُجَّـــةٍ وكَـــلاَمِ

خَـــائِفٍ مُـــشْفِقٍ إِذَا حَـــضَرَ الخَـــصْـ
ـمَانِ يَخْـشَى مِـنْ هَـوْلِ يَـوْمِ الخِـصَامِ

لَـــمْ يَـــزِدْهُ القَـــضَاءُ فَخْـــراً، وَلَكِـــنْ
قَـــدْ كَـــسَا الفَخْـــرَ سَـــائِرَ الأَحْكَـــامِ

بِكَ يَا بْنَ الحُـسَيْنِ شُـدَّتْ عُـرَى الدِّيْـ
ـــنِ وقَامَـــتْ دَعَـــائِمُ الإِسْـــلاَمِ

رَحْمَـــةً مِـــنْ مُدَبـــرِ الخَلْـــقِ لِلْخَلْــ
ــقِ أَظَلَّــتْ إِذْ قُمْــتَ فــي ذَا المَقَــامِ

تَمَّـــمَ اللهُ لِلخَلِيفَـــةِ مَـــا أَعْـــ
ــطَاهُ مِـــنْ نِعْمَـــةٍ مَـــدَى الأَيَّـــامِ

فَلَقَـــدْ قُلِّـــدَ القَـــضَاءَ رَفِيـــعُ الـــ
ــقَدْرِ ذَا رَأْفَـــةٍ عَلَـــى الأَيْتَـــامِ

قَــدْ حَــوَى مِــنْ رِعَايَــةِ الــدِّينِ مــا
يَعْـــصِمُهُ مِـــنْ مَوَاقِـــفِ الآثَـــامِ
وصَـــلَ اللهُ مَـــا حَبَـــاهُ مِـــنَ النَّعْــــ
ـــمَا بِنُعْمَـــاهُ فِـــي جِنَـــانِ المُقَـــامِ

فلم يزل جارياً على سديد القضاء، وإنفاذ الحكم والأوصياء، إلى أن توفي.

وكان الوالد السعيد قد رد القضاء بباب الأزج إلى الجيلي، وجعل صاحبه أبا علي يعقوبَ مشرفاً عليه، فلما تبين له من حال الجيلي الاختلالُ، عزله، ثم ردَّ النظر في عقد الأنكحة والمداينات بباب الأزج إلى تلميذه أبي علي يعقوب، واستناب أبا عبدالله بنَ البقال في النظر في العقار بباب الأزج، واستناب بدار الخلافة ونهر المعلى أبا الحسنِ السيبيَّ، ولو ذهبتُ أشرح قضاياه السديدة، لكانت كتاباً قائماً بنفسه.

ومعلومٌ ما خَصص الله سبحانه به هذا الوالدَ السعيد من النعم الدينية، والرتب السامية العلية، وكونه إمامَ وقته، وفريدَ دهره، وقريعَ عصره، لا يعرف في شرق الأرض وغربها شخصٌ يتقدم في علم مذهبه عليه، أو يضاف في ذلك إليه، هذا مع تقدمه في هذه البلدة على فقهاء زمانه بقراءته للقرآن بالقراءات العشر، وكثرة سماعه للحديث، وعلو إسناده في المرويات، ولقد حضر الناس مجلسه، وهو يملي حديث رسول الله ﷺ بعد صلاة الجمعة بجامع المنصور على كرسي عبدالله بن إمامنا أحمدَ

ـ رحمه الله ـ، وكان المبلِّغون عنه في حَلْقته، والمستملون ثلاثةً؛ أحدُهم: خالي أبو محمد، والثاني: أبو منصور بنُ الأنباري، والثالثُ: أبو علي البرداني.

وأخبرني جماعة ممن شهد الإملاء: أنهم سجدوا في حلقة الإملاء على ظهور الناس؛ لكثرة الزحام في صلاة الجمعة، في حلقة الإملاء.

وما رأى الناس في زمانهم مجلساً للحديث اجتمع فيه ذلك الجَمُّ الغفير، والعدد الكثير.

وسمعت من يذكر أنه حزر العدد بالألوف، وذلك مع نباهة مَنْ حضر من الأعيان، وأماثل الزمان، من النقباء، وقاضي القضاة، والشهود، والفقهاء، وكان يوماً مشهوداً، والناس إذ ذاك يسمعون، والكَتَبة يكتبون، وبالنظر إليه يتبركون، وبفضله يُقرون ويشهدون، وحضرت أنا أكثرَ أماليه بجامع المنصور، وأجاز لي إجازةً، ولأخي أبي خازم ـ حفظه الله ـ، سأله الإجازةَ لنا خالُنا أبو محمد بنُ جابر، فأجاز لنا في مرضه لفظاً.

حدثنا الوالد السعيد إملاءً من لفظه وأصلِه يومَ الجمعة بعدَ الصلاة، بجامع المنصور، في التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة ست وخمسين وأربع مئة، قال: حدثنا أبو الحسين ابن أخي ميمي، قال: حدثنا عبدالله ابن محمد بن عبد العزيز البغوي، قال: حدثنا أبو روح محمد بن زياد بن فروة البلدي، قال: حدثنا أبو شهاب، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبدالله، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ ﷻ عَيَاناً، كَمَا تَرَوْنَ

هَذَا، لاَ تُضَامُوْنَ في رُؤيَتِـهِ، فَإِنْ استَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا على صَلاَةٍ قَبْلَ طُلُوْعِ الشَّمْسِ وقَبْلَ الغُرُوْبِ، وقَرَأَ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[قٓ: ٣٩]». قال لنا الوالد السعيد: هذا الحديث صحيح، أخرجه البخاري عن يوسف بن موسى، عن عاصم بن يوسف اليربوعي، عن ابن شهاب، وكأني سمعته من البخاري.

وقد امتدح بعضُ أهل العلم الوالدَ السعيدَ بأبيات، منها:

الحَنْبَلِيُّـوْنَ قَـوْمٌ لاَ شَبِـيهَ لَهُـمْ
في الدِّينِ والزُّهْـدِ والتَّقْـوَى إِذَا ذُكِـرُوا

أَحْكَـامُهُم بِكِتَـابِ اللهِ مُـذْ خُلِقُـوا
وبالحَـدِيْثِ ومَـا جَـاءَتْ بِـهِ النُّـذُرُ

إِنَّ الإِمَـامَ أَبَـا يَعْلَـى فَقِـيهَهُمُ
حَبْـرٌ عَـرُوفٌ بِمَـا يَـأْتِي وَمَـا يَـذَرُ

صِلْ فاقتَدِرْ، فَلَكَ المَسْطُوْرُ إِنْ فَخَـرُوا
مَـا نَـائِمٌ مِثْـلُ يَقْظَـانٍ بِـهِ سَـهَرُ

ومعلومٌ ما كان عليه شيوخ عصره، وعلماءُ وقتـه، من بين موافق ومخالف من توقيرهم له في حداثة سنه، وسالف دهره، وأنـه كان إذ ذاك معدوداً من الأماثل والأعيان، وشيوخ العلماء وذوي الأسنان، الذين قد شَحَّ بهم الزمان، وذلك عند معرفتهم بعلمه وديانتـه، وتقدمه في النظر

والتحقيق، وتخصصه بسلوك أحسن طريق، وإنما يَعرف الفضلَ لأهله مَنْ كان في نفسه فاضلاً، ويَشهد بالعقل لأهله مَنْ كان في نفسه عاقلاً، وقد قيل: نقاد الجوهر أشدُّ عوزاً من الجوهر.

كان الوالد السعيد متميزاً بالزهادة على كافة أهل العلم قلماً، ونقل في طلبه قدماً، كما قال عمر لسلمان ـ عليه السلام ـ حين دون الدواوين: مع من تريد أن أكتبك؟ قال: مع الذين ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].

كان في قناعته كما قال أبو حمزة الصوفي: كنت إذا أصابتني فاقة، قلت في نفسي: إلى من أهدي هذه الفاقة؟ ثم فكرت، فلم أجد أحقَّ بها مني، فطويتها، والأبياتُ مشهورة في المعنى:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَسْتَقْرِضَ المَالَ مُنْفِقاً
عَلَى شَهَوَاتِ النَّفْسِ فِي زَمَنِ العُسْرِ
فَسَلْ نَفْسَكَ الإِقْرَاضَ مِنْ كِيْسِ صَبْرِهَا
عَلَيْكَ وَإِنْظَاراً إِلَى زَمَنِ اليُسْرِ
فَإِنْ فَعَلَتْ كُنْتَ الغَنِيَّ، وإِنْ أَبَتْ
فَكُلُّ مَنُوعٍ عِنْدَهَا وَاسِعُ العُذْرِ

وقال: كتب أبو نصر عبيدُالله بن سعيد السجزيُّ الحافظُ من مكة ـ حماها الله ـ كتاباً ذكر فيه أبياتاً جواباً عن كتابه، فقال:

كِتَــــابُكَ سَيــــدِّي لمَّـــا أَتَانِــــي
سُــرِرْتُ بِــهِ، وَجَــدَّدَ لِــي ابْتِهَاجَــا
وَذِكْــرُكَ بالجَمِيــــلِ لَنَـــا جَمِيـــلٌ
يُقَلِّــــدُنَا وَلَـــمْ نَمْـــزِجْ مِزَاجَـــا
جَلَلْـــتَ عَـــنِ التَّـــصَنُّعِ فِـــي ودَادٍ
فَلَـــمْ نَـــرَ فِـــي تَـــوَدُّدِكَ اعْوِجَاجَـــا
وَقَـــدْ كَثُـــرَ المُـــدَاجِي والمُرَائِـــي
فَـــلاَ تَحْفِـــلْ بِمَـــنْ رَاءَى وَدَاجَـــى
حَيِيْـــتَ مُعَمَّـــراً وجُزِيْـــتَ خَيْـــراً
وَعِــشْتَ لِــدِينِ ذِي التَّقْــوَى سِــرَاجَا

وناهيك بأبي نصر السجزيِّ، مع علمه ودينه وزهده!

ولعمري! لقد حاز الوالد السعيد من الفضل ما عسى أن يَعجِز عنه كثير من الأقران، وعدد من ذوي الأسنان؛ من ضبط العلوم بحسن بصيرة وإتقان، وتدقيق في الكشف عن غوامض المذهب وخافيه، والبيان عن معانيه، وهو ـ مع ذلك إلى حين وفاته، مع كبر السن ـ مجتهدٌ دائب، على التصنيف والتدريس مواظب، ثم إصغاؤه مع هذا العلم الكثير، إلى كلمة تستفاد من صغير أو كبير، ولو قصد قاصد تعداد كتبه ومصنفاته، وتأمل ما قرره من الأدلة على غوامض مذهبه ومسائل مفرداته، لعسى أن تلحقه السآمةُ في حسابه، والمشقةُ في استيعابه.

ولو اقتصر من يقصد العدل والإنصاف، على النظر في كتابه الذي صنفه في مسائل الخلاف؛ لدله على منزلته من العلم دليلٌ كاف.

ومعلومٌ ما خصه الله تعالى به ـ مع موهبة العلم والديانـة ـ من عِزِّ التعفف والصيانة، والمروءة الظاهرة، والمحاسن الكثيرة الوافـرة، مع هجرانه أبوابَ السلاطين، وامتناعـه ـ على ممر السنين ـ أن يقبل لأحد منهم صلةً وعطية، ولم تزل ديانتهُ ومروءته لما هذا سبيلُه أبية.

وكان يقسم ليله كلَّه أقساماً؛ فقسم للمنام، وقسم للقيـام، وقسم لتصنيف الحلال والحرام.

ولقد نزل به ما نزل بغيره من النكبات، التي استكان لها كثير من ذوي المروءات، وخروجٌ عن مألوفات العادات، فلم يحفظ عليه أنه خرج عن جميل عادته، ولا طرحَ المألوفَ من مروءته، ومن شاهد ما كان عليه من السكينة والوقار، وما كسا الله وجهه من الأنوار، مع السكون والسمت الصالح، والعقل الغزير الراجح، شهد له بالدين والفضل ضرورة، واستدل بذلك على محاسنه الخفية المستورة، هذا مع الأناة والحلم، الذي بـه يزان العلم، وحملِه الأذى في جنب الإيمان، والتصديقِ بالأحاديث التي هي عن صاحب الشريعة ﷺ مروية، وكم قصدَه من أعداء المروءة والدين من قاصدٍ باغ، ومبتدعٍ طاغ، جامعٍ في إزعاجـه، ومنفِّرٍ عن منهاجـه، فعاد خاسئاً ذليلاً، وبحسرة الظفر قتيلاً؛ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[الأحزاب: ٦٢]، وقد أنشد بعض الشعراء في مثله:

تِلْـــكَ المَكَـــارِمُ لا قَعْبَـــانِ مِـــنْ لَـــبَنٍ

شِـــيبا بِمَـــاءٍ، فَعَـــادَا بَعْـــدُ أَبْـــوَالاَ

* **فأما عدد أصحابه، الذين سمعوا منه الحديث:** فالعدد الكثير، والجم الغفير، منهم: أحمدُ بنُ علي بن ثابت، وعبدُ العزيز العاصمي النخشبي، وعمرُ بنُ أبي الحسن الدهستاني الخياط، وهبةُ الله بنُ عبد الوارث الشيرازي، وإسحاقُ بنُ عبد الوهاب بن مندَهْ الحافظُ المقرئ، ومكيُّ بن بجير الهمداني، وعمرُ الأرموي، وأحمدُ بنُ الحسن بن خيرون، وابنا خاله؛ أبو طاهر، وأبو غالب، وأبو الحسين بنُ الطيوري، وأبو علي البراداني، وأبو الغنائم بنُ النرسي الكوفي، وأبو بكر القطان المقدسي، وأبو منصور الخياط، وأبو منصور القرميسيني، وأبو منصور بن الأنباري، ومحمد بن عمارةَ العكبري، ومحمد بن أحمد بن أحمد بن مردين، وأبو العباس المخلطي، وأحمد بن العلبي، وأبو بكر وأبو الحسين ابنا ابن يوسف، وابنا عمهما: أبو محمد، وأبو الحسن بن رضوان، وابنا عمه: أبو نصر، وأبو الحسين، وأبو جعفر الأصبهاني، وأبو الكرم المبارك بن فاخر النحوي، وأخوه أبو عبدالله بن الدباس، وأبو طاهر وأبو القاسم ابنا البلدي، وأبو نصر ياسر وأبو العز العكبريان، في آخرين.

* **فأما الذين تفقهوا وعقلوا، وسمعوا الحديث:** فأبو الحسن البغدادي، والشريف أبو جعفر، وأبو الغنائم بن الغباري، وأبو الغنائم بن زبيبا، وأبو علي بن البناء، وأبو الوفاء بن القواس، والقاضي أبو علي

البرزبيني، والقاضي أبو الفتح بن جلبة، وعلي بن عمرو الضرير الحراني، وأبو ياسر بن الحصري، وأبو عبدالله الأنماطي، والحسين البرداني، وأبو الحسن النهري، وأبو البركات بن شبلي، وأبو محمد شافع، وأبو الوفاء ابن عقيل، وطلحة العاقولي، ومحفوظ الكلوذاني، وأبو الحسن بن جدا العكبري، وأبو الفرج المقـدسي، وأبو الحسن بن زفر العكبري، وأبو عبدالله الرذاني، وأبو الحسن بن الركاب، وأبو عبدالله الباجسرائي، وأبو يعلى بن الكيال، وجعفر الدرزيجاني، والأخ أبو القاسم، وغيرهم ممن يشق إحصاء أسمائهم.

* **فأما عدد مصنفاته فكثيرة**، فنشير إلى ذكـر ما يتيسر منها؛ فمن ذلك: «أحكام القرآن»، و«نقل القـرآن»، و«إيضاح البيـان»، و«مسائل الإيمان»، و«المعتمد»، و«مختصر المعتمـد»، و«المقتبس»، و«مختصر المقتبس»، و«عيون المسائل»، و«الـرد على الأشعريـة»، و«الـرد على الكرامية»، و«الرد على الباطنية»، و«الرد على المجسمة»، و«الرد على ابن اللبـان»، و«إبطـال التأويلات لأخبـار الصفات»، و«مختصر إبطال التأويلات»، و«الانتصار لشيخنا أبي بكر»، و«الكـلام في الاستـواء»، و«الكلام في حروف المعجم»، و«القطع على خلود الكفار في النار»، و«أربع مقدمات في أصول الديانات»، و«إثبات إمامة الخلفاء الأربعة»، و«تبرئة معاوية»، و«الرسالة إلى إمام الوقت»، و«جواب مسائل وردت من الحرم»، و«جوابـات مسائل وردت من تنيس»، و«جوابـات مسائل وردت من ميافارقين»، و«جوابات مسائل وردت من أصبهان»، و«العدة

في أصول الفقه»، و«مختصر العـدة»، و«الكفايـة في أصـول الفقه»، و«مختصر الكفاية»، و«الأحكام السلطانية»، و«فضائل أحمد»، و«مختصر في الصيام»، و«إيجاب الصيام ليلـة الإغمـام»، و«مقدمة في الأدب»، و«كتاب الطب»، و«كتاب اللباس»، و«الأمر بالمعروف»، و«شروط أهل الذمة»، و«التوكل»، و«ذم الغنـاء»، و«الاختلاف في الذبيح»، و«تفضيل الفقر على الغنى»، و«فضل ليلة الجمعـة على ليلة القـدر»، و«تكذيب الخيابرة فيما يدعونه من إسقاط الحرية»، و«إبطال الحيل»، و«الفرق بين الآل والأهل»، و«المجرد في المذهـب»، و«شرح الخرقي»، و«كتاب الروايتين»، و«قطعة من الجامع الكبير»، فيها: الطهارة، وبعض الصلاة، والنكاح، والصداق، والخلع، والوليمة، والطلاق، و«الجامع الصغير»، و«شرح المذهب»، و«الخصال والأقسام»، وفيه يقول بعضهم:

قَـــدْ نَظَرْنَـــا مُـــصَنَّفَاتِ الأنَـــامِ
وسَـــــبَرْنَا شَـــــرِيعَةَ الإسْـــــلاَمِ

مَــا رَأَيْنَــا مُــصَنَّفاً يَجْمَــع العِلْـــ
ـــمَ مَــعَ الاخْتِــصَارِ والإفْهَــامِ

مِثْــلَ مَــا صَــنَّفَ الإمَــامُ أَبُــو يَعْــ
ــلَى كِتَــابَ الخِــصَالِ والأقْــسَامِ

ومن مصنفاته: «الخلاف الكبير».

ومن نظر في تصانيفه حقيقةَ النظر، علم أن ما وراءه مراماً ولا مقالاً،

إلا ما يدخل على البشر من التقصير عن الكمال، ويخرج به العالم عن منازل الأنبياء، ويتميز به المتأخر عن مراتب أهل التقدم من العلماء، فلقد حمل الناس عنه علماً واسعاً من حديث رسول الله ﷺ، ومن الأصول والفروع، وهو مستغنٍ باشتهار فضله عن الإطناب في وصفه؛ لأنا رأينا البلغاء قد وصفوا فقصروا، والعلماءَ قد مدحوا فأكثروا، وكلٌّ يطلب أمدَه، فيعجزون؛ إذ كان الله ﷻ قد رزقه حفظ القرآن، والقراءة بالعشر، والعلم بالحلال والحرام، والأحكام والفرائض، وعلم الأصول والفروع، ورزقه من شرف الأخلاق، وكرم الأعراق، والمجد المؤثل، والرأي المحصل، والفضل والفهم، والإصابة والعزيمة الصافية، والمعرفة الشافية، والتفرد بكل فضيلة، والسمو إلى درجة رفيعة، من محمود الخصال، والزهد والكمال، ما يطول شرحه، حتى لم يكن له شبيهٌ في وقته، ولا نظير في فهمه، ولا مجارٍ في حكمه، ولم تقع أبصارُ أهل زمانه على مثله؛ لأن طينته حرة، وعرقه كريم، وغرسه طيب، ومنشأه محمود، وكانت أفعاله كأخلاقه، وأخلاقُه كأعراقه، وأولُه كآخره، لا يمتنع عليه معرفُة المبهَم الغامض من الأمور، ولا يتلجلج اشتباهُ المشكِل الصعب في الصدور، ولا يعرف الشكَّ ولا العِيّ، ولا الحَصَر عند مناظرة المخالفين والموافقين، ومجادلة المتكلمين، وسائر الفقهاء المختلفين.

ولقد كان يحضر مجلس أبي جعفر السمناني في منزله، ويحضره شيوخ الفقهاء والمتكلمين المتابينين في الأصول والفروع، فتحضر صلاة الظهر والعصر، فيتأخر الكل، ويأتمون بصلاته.

* **فلنذكر الآن تبيين منهج السلف، وما أُمروا بأدائه إلى الخلف، وهو الذي درج عليه الوالدُ السعيد** ـ قدس الله روحه وأرواحهم ـ لبعضهم بمعونة الله، ونجتنب ما ذم أهل البدع بسببه، راجين بذكره جزيل الثواب، متوقِّين الخروج عن الصواب، بعد تعريفك ما عسى أن تلقاه من ذوي الخلاف والعناد، من الأذى إذا تحققوا معرفتك، لما هم عليه من الفساد، والمحق مأمور بالصبر لينال به جزيل الأجر، وقدمناه أولاً في نكتتين، من أَتقنهما ولزمهما، أدرك سعادةَ الدارين، وما نذكره بعدهما إنما نريد به شرحهما.

إحداهما: تركُ ما تراه لما أُمرت به، مع تبيين الأمر المتمسك بموجبه.

والثانية: قلة الاكتراث بكثرة المبطلين، وتهجينهم ما درج عليه الوالد السعيد، والسلفُ الصالح الرشيد، مع سخاء النفس عما قالوه من قبول عند أمثالهم، ووصول إلى بعض آمالهم، فإذا ألزمت نفسك الأخذَ بهاتين النكتتين، عُوِّضت عما تركت، سكوناً إلى ما عرفت، والثقة بنبيل ما به وعدت، وهابك مخالفُك وإن كنت وحيداً، وكنت عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ثم عند صالحي عبيده حميداً.

* **فلنذكر الآن البيانَ عن اعتقاد الوالد السعيد، ومَنْ قبلَه من السلف الحميد، في أخبار الصفات:**

فاعلم ـ زادنا الله وإياك علماً ينفعنا الله به، وجعلَنا ممن آثر الآيات الصريحة، والأحاديثَ الصحيحة على آراء المتكلمين، وأهواء المتكلفين ـ:

أن الذي درج عليه صالحو السلف، وانتهجه بعدهم خيارُ الخلف هو: التمسكُ بكتاب الله ﷻ، واتباعُ نبيه محمد ﷺ، ثم ما رُوي عن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، ثم عن التابعين، والخالفين لهم من علماء المسلمين، والإيمانُ والتصديق بما وصف الله تعالى به نفسه، أو وصفَه به رسولُه، مع ترك البحث والتنقير، والتسليمُ لذلك، من غير تعطيل، ولا تشبيه، ولا تفسير، ولا تأويل، وهي الفرقة الناجية، والجماعة العادلة، والطائفة المنصورة إلى يوم القيامة، فهم أصحابُ الحديث والأثر ـ والوالد السعيد تابعُهم ـ، هم خلفاءُ الرسول، وورثة حكمه، وسَفَرَتُه بينه وبين أمته، بهم يلحق التالي، وإليهم يرجع العالي، وهم الذين نبزهم أهلُ البدع والضلال، وقائلو الزور والمحال: أنهم مُشَبِّهَة جُهَّال، ونسبوهم إلى الحَشْو والطغام، وأساؤوا فيهم الكلام.

فاعتقد الوالدُ السعيد وسلَفُه ـ قدس الله أرواحهم، وجعل ذكرنا لهم بركةً تعود علينا ـ في جميع ما وصف الله تعالى به نفسه، أو وصفه به رسولُه ﷺ: أن جميعَ ذلك صفاتُ الله ﷻ تُمَرُّ كما جاءت، من غير زيادة ولا نقصان، وأقروا بالعجز عن إدراك معرفة حقيقة هذا الشأن، اعتقد الوالد السعيد ومن قبلَه ممن سلفه من الأئمة: أن إثبات صفات الباري ـ سبحانه ـ إنما هو إثباتُ وجود، لا إثباتُ تحديد وكيفية لها حقيقة في علمه، لم يُطلع الباري سبحانه على كنه معرفتها أحداً من إنس ولا جان.

واعتقدوا: أن الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات، ويحتذى حذوه ومثاله، وكما جاء.

وقد أجمع أهل القبلة: أن إثبات الباري ـ سبحانه ـ إنما هو إثبات وجود، لا إثبات تحديد وكيفية، هكذا اعتقد الوالدُ السعيد، ومن قبلَه ممن سلفه من الأئمة: أن إثبات الصفات للباري سبحانه إنما هو إثبات وجود، لا إثباتُ تحديد وكيفيـة، وأنها صفات لا تشبه صفاتِ البريـة، ولا تدرَك حقيقةُ علمها بالفكر والرويَّـة، والأصل الذي اعتمده في هذا الباب: اتبـاعُ قولـه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[آل عمران: ٧]، وقـال تعـالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[طه: ١١٠]. فاعتقدوا أن الباريء ـ سبحانه وتعالى ـ فَرْدُ الـذات، متعـددُ الصفـات، لا شبيَه لـه في ذاتـه، ولا في صفاته، ولا نظيرَ ولا ثان، وسمعوا قولَه ﷻ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[البقرة: ١ ـ ٣]، فآمنوا بما وصف الله به نفسه، وبما وصفه به رسولُه ﷺ؛ تسليماً للقدرة، وتصديقاً للرسل، وإيماناً بالغيب.

واعتقدوا: أن صفات الباريء ـ سبحانه ـ معلومـة من حيث أعلم هو، غيب من حيث انفرد واستأثر، كما أن الباريء ـ سبحانه ـ معلوم من حيث هو، مجهول ما هو.

واعتقدوا: أن الباريء ـ سبحانه ـ استأثر بعلم حقائق صفته ومعانيها عن العالمين، وفارق بها سائر الموصوفين، فهم بها مؤمنون، وبحقائقها موقنون، وبمعرفة كيفيتها جاهلون، لا يجوز عندهم ردُّها؛ كرد الجهمية، ولا حملُهـا على التشبيـه؛ كما حملتـه المشبهـة الـذين أثبتوا الكيفية، ولا تأولوها على اللغات والمجازات؛ كما تأولتها الأشعرية.

فالحنبلية لا يقولون في أخبار الصفات بتعطيل المعطِّلين، ولا بتشبيه المشبِّهين، ولا بتأويل المتأوِّلين، مذهبُهم حقٌّ بين باطلينِ، وهُدًى بين ضلالتينِ؛ إثباتُ الأسماء والصفات، مع نفي التشبيه والأدوات؛ إذ لا مثل للخالق سبحانه فيشبَّه، ولا نظير لـه فيجنَّس منه، فنقول كما سمعنا، ونشهد بما علمنا، من غير تشبيه ولا تجنيس، على أنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١].

وفي ردِّ أخبارِ الصفات، تكذيبُ النقلة، وإبطالُ شرائع الدين؛ من قِبَل أن الناقلين إلينا علمَ الصلاة والزكاة والحج، وسائر أحكام الشريعة، هم ناقلو هذه الأخبار، والعدلُ مقبولٌ القولُ فيما قاله، ولو تطرق إليهم ـ والعياذ بالله ـ التخرصُ بشيء منها، لأدى ذلك إلى إبطال جميع ما نقلوه، وقد حفظ الله ـ سبحانه ـ الشرعَ عن مثل هذا.

وقد أجمع أهل الحديث ـ والأشعريةُ منهم ـ على قبول هذه الأحاديث، فمنهم من أَمَرَّها على ما جاءت، وهم أصحابُ الحديث، ومنهم من تأوَّلها، وهم الأشعرية، وتأويلُهم إياها قبولٌ منهم لها؛ إذ لو كانت عندهم باطلة، لاطَّرحوها، كما اطَّرحوا سائر الأخبار الباطلة، وقد روي عن النَّبيِّ ﷺ: أنه قال: «أُمَّتِي لاَ تَجْتَمعُ عَلَى خَطَأٍ ولاَ ضَلاَلَةٍ».

وما ذكرناه من الإيمان بأخبار الصفات من غير تعطيل، ولا تشبيه ولا تفسير ولا تأويل، هو قول السلف بدءاً وعوداً، وهو الذي ذكره أمير المؤمنين القادر ـ رضوان الله عليه ـ في «الرسالة القادرية»، قال فيها: «وما وصف الله ـ سبحانه ـ به نفسه، أو وصفه به رسولُ الله ﷺ: فهو

صفاتُ الله ﷻ على حقيقته، لا على سبيل المجاز».

وعلى هذا الاعتقاد جمعَ أميرُ المؤمنين القـائمُ بأمر الله ـ رضوان الله عليه ـ مَنْ حضره مـع الوالـد السعيد من علمـاء الوقـت، وزاهدَهم أبا الحسن القزوينيَّ سنة اثنتين وثلاثين وأربع مئة، وأخذ خطوطَهم باعتقاده.

وقد قال الوالد السعيد ﷺ في أخبار الصفات: المذهبُ في ذلك: قبولُ هذه الأحاديث على ما جاءت به، من غيـر عُدول عنـه إلى تأويل يخالف ظاهرَها، مع الاعتقاد بأن الله سبحانـه بخلاف كلِّ شيء سواه، وكلُّ ما يقـع في الخواطر من حَـدٍّ، أو تشبيه، أو تكييف، فالله ـ سبحانـه وتعالى ـ. . . عن ذلك، والله ليس كمثله شيء، ولا يوصـف بصفـات المخلوقين الدالة على حدثهم، ولا يجوز عليه ما يجوز عليهم من التغير من حال إلى حال، ليس بجسم، ولا جوهر، ولا عَرَض، وإنه لم يزل، ولا يزال، وإنـه الذي لم يتصور في الأوهام، وصفاتـه لا تشبـه صفـات المخلوقين؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١].

وأما كتابه ـ قدس الله روحه ـ في «إبطال التأويلات لأخبار الصفات» فمبني على هذه المقدمات، وإن إطلاق ما ورد بـه السمع من الصفات لا يقتضي تشبيه الباري ـ سبحانه ـ بالمخلوقات. وذكر ـ رحمة الله عليه ـ كلاماً معناه: أن التشبيه إنما يلزم الحنبليةَ أن لو وُجد منهم أحدُ أمرين؛ إما أن يكونوا هم الذين ابتدؤوا الصفة لله ﷻ واخترعوها، أو يكونوا قد صرحوا باعتقـاد التشبيه في الأحاديـث التي هم ناقلوها، فأما أن يكون صاحب الشريعة ﷺ هو المبتدئ بهذه الأحاديث، وقوله ﷺ حجـة يسقط

بها ما يعارضها، وهم تبع لـه، ثم يكون الحنبلية قد صرحوا بأنهم يعتقدون إثباتَ الصفات، ونفيَ التشبيه، فكيـف يجـوز أن يضاف إليهم ما يعتقدون نفيه؟ وعلى أنه قد ثبت أن الحنبلية إنما يعتمدون في أصول الدين على كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ، ونحن نجد في الكتاب والسنة ذكر الصفات، ولا نجد فيها ذكر التشبيه، فكيف يجوز أن يضاف إليهم ما يعتقدون نفيه؟

ومما يدل على أن تسليم الحنبلية لأخبار الصفات، من غير تأويل، ولا حملٍ على ما يقتضيه الشاهد أنـه لا يلزمهم في ذلك التشبيه إجماع الطوائف ـ من بين موافق للسنة ومخالف ـ أن الباريء سبحانه ذات وشيء وموجود، ثم لم يلزمنا وإياهم إثبات جسم، ولا جوهـر، ولا عرض، وإن كان الذات في الشاهد لا تنفك عن هذه السمات، وهكذا يلزم الحنبليةَ ما يقتضيه العرفُ في الشاهد في أخبار الصفات.

يبين صحة هذا: أن الباريء ـ سبحانه ـ موصوف بأنه حي، عالم، قادر، مريـد، والخلقُ موصوفون بهذه الصفات، ولم يدلَّ الاتفاق في هذه التسمية على اتفاق في حقائقها ومعانيها، هكذا القول في أخبار الصفات، ولا يلزم عند تسليمها ـ من غير تأويل ـ إثباتُ ما يقتضيه الحدُّ والشاهد في معانيها، وبهذا ونظيرِه استدل الوالـدُ السعيد ـ رحمـة الله عليه ـ في كتابه «إبطال التأويلات لأخبار الصفات».

فأما الرد على المجسِّمة لله، فيردُّه الوالد السعيد بكتاب، وذكـره أيضاً في أثناء كتبه، فقال: لا يجـوز أن يُسمَّى اللهُ جسماً. قال أحمـد: لا يوصف الله تعالى بأكثرَ مما وصف به نفسَه.

قال الوالـد السعيد: فمن اعتقد أن الله سبحانه جسمٌ من الأجسام، وأعطاه حقيقةَ الجسم، من التأليف والانتقال، فهو كافر؛ لأنه غير عارف بالله ﷻ؛ لأن الله ـ سبحانه ـ يستحيل وصفُه بهذه الصفات، وإذا لم يَعرفِ اللهَ ـ سبحانه ـ، وجب أن يكون كافراً، وهذا الكتاب عدة أوراق.

واعلم: أن الله ـ سبحانه ـ اصطفى رسلاً من خلقـه، فبعثهم بالدعاء إليه، والصبر على ما نابهم من جَهَلة خلقه، وامتحنهم من المحن بصنوف من البلاء، وضُروب من المحن واللأواء، وكـل ذلك تكريماً لـهم غير تذليل، وتشريفاً غير تخسير ولا تقليل.

وكان من أرفع رسله عنده منزلة: أشدُّهم اجتهاداً وأخذاً في إمضاء أمره، مع البلية بأهل دهـره، قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[الأحقاف: ٣٥]، وقـال تعـالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾[ص: ١٧]، وقال ﷻ لـه ولأتباعـه ـ صلى الله عليـه وعليهم ـ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[البقرة: ٢١٤]، وقـال ﷻ: ﴿الم ۞ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت: ١ ـ ٣]، فلم يُخْلِ ـ جل ثناؤه ـ أحداً من مكرَّمي رسلِه وأنبيائه، ومقرَّبي أصفيائِه وأوليائِه، من محنة في عاجلته دون آجلته، يستوجب بصبره عليها ما أعـدَّ لـه من الدرجات التي قسم مصيره إليها.

وجعل ـ سبحانه ـ علماءَ الأمم الماضينِ خلفاءَ أنبيائهم المرسَلين، والقُوَّامَ بما جاؤوا به من الدين، يوضِّحون عن أحكامه، ويحامون عن حدوده وأعلامه، يدفعون عنه كيدَ الشيطان، ويحرسونه من الترك والنسيان، لا يصدُّهم عن التمسك بالحق، ولا يثَنيهم عن التعطف على الخلق، سوءُ ما به ينالون، توخياً لثواب الله سبحانه الذي يطلبون، وفيه يرغبون.

ثم جعل سبحانه علماءَ هذه الأمة أفضلَ علماء الأمم قسماً، وأوفرهم من الخيرات حظاً، أعدَّ لهم الكرامات، وقسم لهم المنازل والدرجات، مع ابتلائه سبحانه لمؤمنيهم بالمنافقين، ولصادقيهم بالمكذِّبين، ولخيارهم بالأشرار، ولصالحيهم بالفُجَّار، وللأماثل الرفعاء بأوضع السفهاء، فلم يكن يَثني العلماءَ ما يلقونه من الأذى عن القيام بحقوق الله تعالى في عباده، وإظهارِ الحق في بلاده.

ولقد كان الوالد السعيد ـ نضر الله وجهه ـ ممن سلك به هذه الطريق، عندما ابتلي به من أذية هذا الفريق، وقد قال ﷺ: «طُوبَى للغُرَبَاءِ، طُوْبَى للغُرَبَاءِ»، قيل: يا رسول الله! من الغرباء؟ قال: «ناسٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ، بينَ نَاسٍ سُوءٍ كَثِيرٍ، مَنْ يُبْغِضُهُم أَكْثَرُ مِمَّن يُطِيعُهُمْ» رواه عبدالله بن عمرو.

ومن تظاهرَ بإنكار البدع، فسبيلُه أن يصبر على أذيَّة المخالِفين، محتسباً عند الله ﷻ، وقد روى أبو هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «المُؤْمِنُ مُوَكَّلٌ بِهِ أَرْبَعَةٌ؛ مُؤمِنٌ يَحْسُدُهُ، وفَاسِقٌ يُبْغِضُهُ، وكَافِرٌ يُقَاتِلُهُ، وشَيْطَانٌ يَكِيدُهُ».

وقال الحسن البصري: ما كـان مؤمنٌ قَـطَّ فيما مضى، ولا يكون مؤمن فيما بقي، إلا إلى جنبـه منافقٌ يؤذيه.

وروى خَبَّابُ بن الأرتِّ ﷺ: أن النَّبيَّ قال: «أَيُّهَا النَّاسُ! اتَّقُوا اللهَ، فوَاللهِ! إِنْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَ المُؤْمِنِينَ من قَبْلِكُم لَيُوْضَعُ المِنْشَارُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِنِصْفَيْنِ، وَمَـا يَـرُدُّهُ عَنْ دِينِـهِ، فاتَّقُوا اللهَ، فَإِنَّ اللهَ فَاتِحٌ عَلَيْكُم، وصَانِعٌ لَكُمْ».

وروى أبو موسى ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ: أنه قال: «لَيْسَ أَحَدٌ أَصْبَرَ على أَذًى يَسْمَعُـهُ مِنَ اللهِ، يَدَّعُونَ لَهُ وَلَداً، ويَجْعَلُونَ لَهُ صَاحِبَةً، وهو يَرْزُقُهُمْ، ويُعَافِيهِمْ» أخرجه البخاري.

وإذا كان الباري ﷻ يصبر على ما يقول الجاحدون والمشركـون، مع قدرته على إهلاكهم وإفنائهم، ومنعهم مما يتفوَّهون بـه، لما سبق في علمه من الإملاء لهم ليزدادوا إثماً، والأنبياء ـ عليهم السلام ـ قد صبروا على ما أُوذوا به، والصالحون قد تأَسَّوا بهم في ذلك، فالواحدُ منـا ـ مع علمه بتقصيره في كل معنى ـ لا ينبغي له أن يقلق لكلمة تسوءُه، وإذا كان القيام بالذبِّ عن أهل الحق ديناً واحتساباً، فالصبرُ على ما يصيبه هو من تمام الاحتساب، وقـد جاء في الحديـث: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُعْطَى كِتَابَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْشُوراً، فَيَنْظُر فيـهِ حَسَنَاتٍ لَمْ يَعْمَلْهَا، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! أَيُّ شَيْءٍ هَذَا؟ فَيَقُول اللهُ ﷻ: هَذَا بِمَا اغْتَابَكَ النَّاسُ وأَنْتَ لاَ تَشْعُرُ».

ويروى عن عبـد الرحمن بن مَهْـدِيّ: أنه قال: لـولا أني أكره أن

يُعصى اللهُ ﷻ، لسرَّني أن لا يبقى في المِصْر أحدٌ إلا اغتابني، وأيُّ شيء أشهى من حسنة يجدُها المرء في صحيفته لم يعمَلْها؟.

وذُكر أن شقيقاً البلخيَّ فاته وِرْدٌ في السَّحَر، فقال لـه أهلُه: فاتك قيامُ الليلة، فقال: إن فات ذلك، فقد صلَّى لي من أهل بلخ أكثرُ من ألف نفس، قالت: كيف؟ قال: باتوا يصلُّون، فإذا أصبحوا، اغتابوني.

وعن بعض السلف: أنه قال: إنك إذا لم يُنْكَ عدوُّك إلا بما يُثلَم به دينُك، فبنفسك بدأت.

وقال بشرُ بنُ الحارث: لا تعبأْ بكلامِ من تكلَّم فيـكَ إلا أن يكون تقياً، والتقيُّ لا يقول ما يعرف، فكيف ما لا يعرف؟

وروي عن عطاء بن أبي ميمونـة: أنه اجتاز بخشبة سعيد بن جبير، فرفع رأسه إلى السماء، فقال: يا رب! حلمُك عن الظالمين فَـتَّتَ قلوب المظلومين، قال: فغشيه الكرى، فرأى كـأن سعيدَ بنَ جُبير في الجنة، والحُورُ حولَـه، وكأن قائلاً يقول له: يا عطاء! حِلْمُنا عن الظالمين أورثَ المظلومينَ هذا المقامَ، أو كما قال.

وما ذكرتُه من أوصاف الوالد السعيد، فهو كالإشارة إلى ما وراءه، وأرجـو أن لا يكـون ذلـك على سبيل التمـادُح، لكنه على سبيل الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والـردِّ عن أعراضِ علماءِ المسلمين، وحمايةِ المؤمنين من المنافقين، قال أبو هريرة ﷺ: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ اغْتِيبَ عِنْدَهُ أَخُوهُ المُسْلِمُ، فَلَمْ يَنْصُرْهُ، وَهُوَ يَسْتَطِيعُ نَصْرَهُ، أَذَلَّهُ اللهُ

في الدُّنْيَا والآخِرَةِ».

وروى أنسُ بنُ مالك، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ حَمَى عِرْضَ أَخِيْهِ في الدُّنْيَا، بَعَثَ اللهُ ﷻ مَلَكاً يَحْمِي لَحْمَهُ عَنِ النَّارِ».

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ؛ يَعْنِي: يَخْـذُلُ امرأ مُسْلِماً في مَوْطِنٍ يُنْتَهَكُ فيه عِرْضُهُ، إلاَّ خَذَلَـهُ اللهُ ﷻ في مَوْطِنٍ يُحِبُّ نُصْرَتَـهُ، ومَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْصُرُ امرأً مُسْلِماً في مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فيه عِرْضُهُ، وتُنْتَهَكَ فيه من حُرْمَتِهِ، إلاَّ نَصَرَهُ اللهُ في مَوْطِنٍ يُحِبُّ فيه نُصْرَتَهُ».

وقال ـ عليه السلام ـ: «لَمَقَامُ أَحَدِكُمْ في الدُّنْيَا يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةِ حَقٍّ يَرُدُّ بِهَا بَاطِلاً، أَو يُحِقُّ بِهَا حَقّاً، أَفْضَلُ من هِجْرَةٍ مَعِي».

وقال ـ عليـه السلام ـ: «لأنْ يَهْدِيَ اللهُ بِهُدَاكَ رَجُلاً خَيْـرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ».

وقال المَرُّوذِيُّ: قلت لأبي عبدالله ـ يعني: إمامَنا أحمـد ـ: ترى للرجل أن يشتغل بالصوم والصلاة، ويسكتَ عن الكلام في أهل البدع؟ فكلح وجهُه، وقال: إذا هو صام وصلى، واعتزل الناس، أليس إنما هو لنفسه؟ قلت: بلى، قال: فإذا تكلم، كان له ولغيره، يتكلمُ أفضلُ.

* **فلنذكر الآن وفاة الوالد السعيد**: توفي ليلة الاثنين، بين العشاءين تاسعة عشر رمضان، من سنة ثمان وخمسين وأربـع مئـة، وصلى عليه أخي أبو القاسم يوم الاثنين بجامع المنصور.

وقيل: إنه لم يُر في جنازة ـ بعد جنازة أبي الحسن القزويني الزاهد ـ

الجمعُ الذي حضر جنازتـه. فلما أصحرَ المشيعون لجنازته إلى حفرته بمقبرة إمامنا أحمد، لحقهم الحرُّ الشديد، فأفطر جماعـة لم يسمحـوا بالرجوع، وكان قد حضره عالَمٌ كثير جـداً يفوت الإحصاء، وقـد روى أنس، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَمُوْتُ، فَتُصَلِّي عليه أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَبْلُغُونَ الْمِئَةَ، فَيَشْفَعُوْنَ فِيهِ، إلاَّ شُفِّعُوا».

وروى أبو أمامـة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الْمِقَـةُ مِنَ اللهِ ﷻ، والصِّيتُ في السَّمَاءِ، فَإِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْـداً، قَالَ: يَا جِبْرِيْلُ! إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ فُلاَناً، فَأَحِبَّـهُ، فَيُنَادِي جِبْرِيْـلُ ـ عليـه السلام ـ، فَيَنْزِلُ لَـهُ المِقَـةُ عَلَى الأَرْضِ». فلقد انتقض السؤددُ بمصابـه، وانثلم المذهبُ بذهابـه، فهو كما قيل:

اليَـوْمَ مَـاتَ نِظَـامُ الفَهْـمِ واللَّـسَنِ
وَمَاتَ مَـنْ كَـانَ يُعْـدِينِي عَلَـى الـزَّمَنِ

وَأَظْلَمَـتْ سُـبُلُ الآدَابِ إِذْ حُجِبَـتْ
شَمْسُ المَكَـارِمِ فـي غَـيْمٍ مِـنَ الكَفَـنِ

وكما قيل:

وَلَـيْسَ نَـسِيمُ المِـسْكِ رَشْـحَ حَنُوطِـهِ
ولَكِنَّـهُ ذَاكَ الثَّنَـاءُ المُخَلَّـفُ

وَلَيْسَ صَرِيرُ النَّعْشِ مَا تَسْمَعُونَهُ

وَلَكِنَّهَا أَصْلاَبُ قَوْمٍ تَقَصَّفُ

وكما قيل:

لاَ أُمَّ لِلْمَوْتِ كَمْ يُبْلِي بِجِدَّتِهِ

فِي كُلِّ يَوْمٍ حَكِيماً مَالَهُ خَلَفُ

أَصَابَ قَصْداً هِلاَلاً فِي تَكَامُلِهِ

وبَحْرَ مَنْطِقِهِ مَا لَيْسَ يُغْتَرَفُ

لَمْ يَبْلِهِ الدَّهْرُ، مَا دَامَتْ بَدَائِعُهُ

تُطوى عَلَى جَمْعِهَا الأَحْشَاءُ والصُّحُفُ

ومَنْ نظرَ في تصنيفه ـ قدس الله روحه ـ ممن له فهمٌ وتيقُّن، وعلمٌ وتديُّن: علمَ أنه يعجز عنه من يروم تصنيفَ مثله، ويفضح فيه من يتعاطى حذو قوله؛ إذ كلامُه السحر الحلال، والعذبُ الزلال، والسهلُ الممتنع، والقريبُ المستصعَب؛ إذ هو نسيجُ وحدِه زهداً وأدباً، وروايةً وأرباً، وفريدُ عصرِه سؤدداً ونبلاً، وفقهاً وجدلاً، فهو كما قيل:

مَاتَ البَدِيعُ، وغَارَتْ دُرَّةُ الفَطِنِ

واسْتَدْرَجَ المَوْتُ بَحْرَ الفَضْلِ في كَفَنِ

لِلَّـــهِ دُرُّ المَنَايَـــا مَـــا صَـــنَعْنَ بِـــهِ

ومَـــا تَـــضَمَّنَتِ الأكْفَـــانُ مِـــنْ بَـــدَنِ

وكما قيل:

تَقَـــضَّتْ بَـــشَاشَاتُ المَجَـــالِسِ بَعْـــدَهُ

وَوَدَّعَنَـــا إِذْ وَدَّعَ الأُنْـــسُ والعِلْـــمُ

وَقَـــدْ كَـــانَ نَجْـــمَ العِلْـــمِ فِيْنَـــا حَيَاتَـــهُ

فَلَمَّـــا انْقَـــضَتْ أَيَّامُـــهُ أَفَـــلَ الـــنَّجْمُ

وكما قيل:

عِشْ مَا بَدَا لَكَ فِي الـدُّنْيَا فَلَـسْتَ تَـرَى

فِـي النَّـاسِ مِنْـهُ ولاَ مِـنْ عِلْمِـهِ خَلَفَـا

وقال تلميذه علي ابنُ أخي نصر يرثيه:

أَسَـــفٌ دائِـــمٌ وحُـــزْنٌ مُقِـــيمُ

لِمُـــصَابٍ بِـــهِ الهُـــدَى مَهْـــدُومُ

مَـــاتَ نَجْـــلُ الفَـــرَّاءِ أَمْ رُجَّـــتِ الأَرْ

ضُ أَمِ البَـــدْرُ كَاسِـــفٌ والنُّجُـــومُ

لَهْفَ نَفْـسِي عَلَـى إِمَـامٍ حَـوَى الفَضْـ

ـــلَ وَهْـــوَ بالمُـــشْكِلاَتِ عَلِـــيمُ

خُلُــقٌ طَــاهِرٌ وَوَجْــهٌ مُنِيــرٌ

وَطَرِيــقٌ إِلَــى الهُــدَى مُــسْتَقِيمُ

كَــانَ لِلــدِّينِ عُــدَّةً وَلأَهْــلِ الدِّيــ

ــنِ فــي النَّائِبَــاتِ خِــلٌّ حَمِــيمُ

مَــنْ يَكُــنْ لِلــدُّرُوسِ بَعْــدَكَ أَمْ مَــنْ

لِجِــدَالِ المُخَــالِفِينَ يَقُــومُ

مَنْ لِفَهْـمِ الحَـدِيثِ والطُّـرْقِ يـسْـتَوْ

ضِــحُ مِنْــهُ صَــحِيحُهُ والــسَّقِيمُ

مَــنْ لِفَـصْلِ القَـضَاءِ إِنْ أَشْـكَلَ الحُكْـ

ــمُ وضَــجَّتْ بِالنَّــازِلاَتِ الخُـصُومُ

دَرَسَــتْ بَعْــدَكَ المَــدَارِسُ فَالعِلْــ

ــمُ طَرِيــدٌ وَحَبْلُــهُ مَــصْرُومُ

هَكَــذَا يَــذْهَبُ الزَّمَــانُ ويَفْنَــى الْــ

ــعِلْمُ فِيــهِ ويُجْهَــلُ المَعْلُــومُ

إِنَّ قَبْــراً حَــوَاكَ يَــا أَيُّهَــا الطَّــوْ

دُ عَجِيــبٌ رَحْــبُ الفِنَــاءِ عَظِــيمُ

إِنْ يَكُــنْ شَخْــصُهُ مَحَتْــهُ يَــدُ الدَّهْـــ

ـــرِ فَــذِكْرَاهُ فــي الــدُّهُورِ مُقِــيمُ

فَنُحَيَّـــا بِـــذِكْرِهِ كَـــلَّ وَقْـــتٍ

وَمُحَيَّـــاهُ فِـــي التُّـــرَابِ رَمِـــيمُ

آمِـرِي بالـسُّلُوِّ! مَهْـلاً؛ فَفِـي القَلْـ

ـــبِ غَــرَامٌ مُبَــرِّحٌ مَــا يَــرِيمُ

كُلَّمَــا رُمْــتُ سَــلْوَةً هَــيَّجَ الحُــزْ

نَ صَــنِيعٌ لَـــهُ وفِعْـــلٌ كَـــرِيمُ

غَيْــرَ أَنَّ القَــضَاءَ جَــارٍ عَلَــى الخَلْـ

ـــقِ قَــضَاءٌ مِــنْ رَبِّــهِمْ مَحْتُــومُ

فَعَلَـــى الـــشَّامتِينَ خِــزْيٌ مُقِــيمٌ

وَعَلَيْـــهِ الـــصَّلاَةُ والتَّـــسْلِيمُ

* فلنذكر الآن ما رآه الصالحون في المنام للوالد السعيد من الحِباء والإكرام: قال رسولُ الله ﷺ: «ذَهَبَتِ النُّبُـوَّةُ، فَلاَ نُبُوَّةَ بَعْدِي، وَبَقِيَتِ المُبَشِّرَاتُ»، قالوا: وما المبشرات؟ قال: «رُؤْيَا المُسْلِمِ الحَسَنَـةُ، يَرَاهَا المُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ» رواه حذيفة.

وسأل عبادةُ بنُ الصامتِ رضي الله عنه النَّبيَّ ﷺ عن قولـه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٣ ـ ٦٤]، قال: «هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا المُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ».

وروى أبو هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ رَآنِي في المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي في اليَقَظَةِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَمَثَّلُ بِي».

سمعت سعوداً الحبشي الصوفي يقول: لم أدرك الصلاة على القاضي الإمام أبي يعلى بن الفراء ـ رحمه الله ـ، فبقيت ضَيِّقَ الصدر، فلما كان أول جمعة أتت على موته، وأنا مصعد في الدجلة، قربَ الزاهر، إذا رجل شيخ هناك عليه آثار النسك، فقال لي: السلام عليك، ثم قال: أنت سعودٌ مولى ابنِ يوسف؟ قلت: نعم، قال: إنْ أُلقي إليك شيء، تلقيه إلى صاحبك؟ قلت: نعم. قال: رأيت البارحة ـ وهي ليلة الجمعة ـ كأني بائتٌ في رباط الزوزني، مقابلَ جامع المنصور، وقد أقبل عشرة أنفس من نحو باب الشام، يقدَمُهم شخص لم أر كهيئته، ونورِه، فقلت: ما الذي جاء به ﷺ وبكم؟ فقال: سل نبيك، فقلت لأحدهم: من أنت؟ فقال: هـذا النَّبيُّ ﷺ، ونحن العشرة، فقلت: يا رسول الله! أنـت بالمدينـة، فما الـذي جـاء بك؟ فقال: جئتُ وأصحابي صليتُ على أبي يعلى بن الفراء، فقلت له: من أقول لصـاحبي الـذي رأى هـذه الرؤيا؟ فقـال: ما عليك. هذا لفظه، أو كما قال.

وسمعتُ أحمـدَ بنَ العلبي الزاهـدَ يقول: رأيت القاضي أبا يعلى ـ رحمه الله ـ بعد وفاته، في الشهر الذي توفي فيه، في إحدى ليالي القدر، وقد ازداد حسناً إلى حسنه، ونوراً إلى نوره، وكأنه ميت، وهو ملقى على

ظهره، فقلت: ما أحسنَ ما قـد صار القاضي! وقـد جاؤوه بماء، أو ماء ورد، فأخذ بإحدى يديه، فأمَّرها على الجانب الآخر، وأخذ بيده الأخرى، فأمَّرها على الجانب الآخر، وأخذ، فعجبت من ذلك، ثم جاؤوه بكفن من حرير، لم أر مثل حسنه، فأُدرج فيه، وحُفر له بركة عرضُها شبه عرض باريتين، ودُفن في تلك البركـة، وخَلْقٌ عظيم على رأس تلك البركـة، فنظرتُ، إذا بالقرب من تلك البركة سبائكُ، وعليه نعشٌ، وعلى النعش ميتٌ مكفن بكفن أبيض لم أر مثلَ بياضه، فعرفتُ من ذلك الخلق صاحباً للقاضي أبي يعلى أعجمياً، يدعى بأبي حكيم، فقلت له: من هذا الذي على النعش على السبائك؟ فقال: القاضي أبـو يعلى، فقلت لـه: يا أبا حكيم! أليس قـد دفن القاضي في هذه البركة؟ فقال: ذاك المدفون في البركة يزوره الخلق، وهذا رفعناه مكاناً علياً، أو كما قال.

وسمعت محمدَ بنَ مواهب يقول: سمعت أبا الحسن بن جدا يقول: كنت نائماً في داري ليلة مات القاضي أبو يعلى، فهتف بي هاتف، وقال:

مَـــا العَـــيْشُ بَعْـــدَكَ مُـــسْتَطَابُ
هَيْهَـــاتَ أَنْ يُغْـــشَى لِمِثْلِـــكَ بَـــابُ

فانتبهت، فلما أسفر الفجر، سمعت منادياً ينادي: من أراد الصلاة على القاضي الإمامِ أبي يعلى، فعلمتُ أن الهاتف والبيتَ الشعر لأجله.

قال ابن جدا: سألت الله تعالى بعد موت القاضي الإمام أبي يعلى أن أراه في النوم، فرأيته، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال لي: يا أبا الحسن!

وحقك! لقد هُدينا لأمر عظيم.

قال ابن جدا: وسألت الله تعالى أن أرى القاضي أبا يعلى في النوم دفعةً أخرى، فرأيتُه، فقلت: يا سيدي! كيف المذهبُ ثَمَّ؟ فقال لي: يا أبا الحسن! المذهب بيننا وبين جهنم سدٌّ من حديد، قلت أنا: وقال ابن سيرين: ما حدثك الميت بشيء في النوم، فهو حق؛ لأنه في دار حق.

وسمعت بعضَ أصحابنا يقول: رأيت ابنَ بكير العكبريَّ في النوم بعد موته، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: أنا عند القاضي أبي يعلى، فقلت له: قد علمتُ أنك قريبٌ من تربته، فقال: أنا عنده في الجنة، أو كما قال.

وسمعت أحمدَ بنَ علي الحنبليَّ يقول: حكى لي سعيدُ بنُ جعفر، قال: كنت عند بعض شيوخي، فدخل بعضُ أصحابي، فقال: رأيت كأني في جامع باكرما، وهي قرية على نهر ملك، وجمعٌ مجتمعٌ، فدخلت إلى الجامع، فرأيت ثلاثة أشخاص على المنبر، فقلت لبعض من كان بقربي: من هؤلاء؟ فقال لي: هذا النَّبيُّ ﷺ، وأبو بكر، وعمر، فقلت: يا رسول الله! بمن الاقتداء؟ فأومأ إلى شيخ قاعد على المِرْقاة التحتانية من المنبر، فقلت لمن كان بقربي: من هذا الشيخ؟ فقال لي: هذا أبو يعلى ابن الفراء، أو كما قال.

قال: وقرأت بخط شيخنا الشريف أبي جعفر، قال: رأيت شيخنا ـ يعني: الوالد السعيد ـ في المنام، وهو في أحسن صورة رأيته في دار

الدنيا، وكأنه شاب، في لحيته طاقات بياض يسيرة جداً، وهو بمسجده بباب الشعير، فتقدمت لأسلم عليه، فقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾[الأنعام: ٥٤].

وكتب إليَّ عليُّ بنُ محمـد بن المسبح، قال: حدثني أبي، قال: أُريت في منامي كأن قائلاً لي: مات في هذه الليلة أحمدُ بنُ حنبل، فارثِهِ، فانتبهت مرعوباً، وقلت: لعله بدعةٌ تظهر، وسنةٌ تموت، فوالله! ما كـان إلا أيامٌ قلائلُ، فوصلتني مكاتبة القاضي أبي علي يعقوب ـ رحمـه الله ـ بوفاة الإمام أبي يعلى رضي الله عنه في الليلة التي رأيـت فيها المنام، قال: وذكرت قول القائل: «ارثـه»، فقلتُ ما لم أَرْضَـه، وما زلـتُ، حتى قلـت هذه الأبيات:

مَاتَ السَّدَى والنَّدَى والمَجْـدُ والكَـرَمُ
والعَـالِمُ الـيَقِظُ المُسْتَبْـصِرُ العَلَـمُ
مَـاتَ الإمَـامُ أَبُـو يَعْلَـى الَّـذِي نُـدِبَتْ
لِفَقْـدِهِ الكَعْبَـةُ الغَـرَّاءُ والحَـرَمُ
يَـا أَيُّهَـا العَـالِمُ الحَبْـرُ الَّـذِيْ كَـسَفَتْ
شَمْسُ الهُدَى بَعْـدَهُ بَـلْ عَادَهَـا الظُّلَـمُ
لَــوْلاَكَ مَــا كَــانَ لِلــدُّنْيَا وَسَــاكِنِهَا
معْنىً ولاَ عَرَفَـتْ طُـرْقَ الهُـدَى الأُمَـمُ

وَلاَ رُوِي عَــنْ رَسُــولِ اللهِ مَــأْثَرَةٌ

ولاَ قَـضَى بِـصَحِيحٍ غَيْـرَ فِيـكَ فَـمُ

لَـمْ يَبْلُـغِ الحَنْبَلِـيُّ الحَبْـرُ مَرْتَبَـةً

إلاَّ عَلَـى رَأْسِـهَا مِـنْ جِسْمِكَ القَـدَمُ

أَوْضَحْتَ سُبْلَ الهُدَى مِنْ بَعْد مَا دَرَسَتْ

عَـنِ الـوَرَى فَفَـدَتْكَ العُـرْبُ والعَجَـمُ

مَـادَتْ بِنَـا الأَرْضُ وارْتُجَّـتْ بِـسَاكِنِهَا

لَمَّـا قُبِـرْتَ وَكَـادَ الـدِّينُ يَنْهَـدِمُ

* فلنذكر الآن شذرة من آدابه وورعه:

سمعت أبا الحسن النهري قال: كنـت في بعض الأيام أمشي مـع القاضي والدِك فالتفتُّ، فقال لي: لا تلتفتْ إذا مشيتَ؛ فإنهُ ينسب فاعلُ ذلك إلى الحمق.

قال النهري: وقال لي والدُك يوماً آخر، وأنا أمشي معه: إذا مشيتَ مع من تعظِّمه، أين تمشي منـه؟ فقلت: لا أدري، فقال: عن يمينه، تُقيمه مقام الإمام في الصلاة، وتخلي لـه الجانـب الأيسر إذا أراد أن يَستنثر، أو يُزيل أذًى، جعله في الجانب الأيسر.

وقال النهري أيضاً: لما قدم الوزير ابن دارست، عبرت أُبصـره، ففاتني درسُ ذلك اليوم، فلما حضرتُ، قلت: يا سيدنا! تتفضل وتعيد لي

الدرس؟ فقال: أين كنتَ في أمسنا؟ فقلت: مضيتُ أبصرتُ ابنَ دارست، فأنكر عليَّ ذلك إنكاراً شديداً، وقال: ويحك! تمضي وتنظر إلى الظَّلَمة؟ وعَنَّفني على ذلك، وروى عن النَّبيِّ ﷺ: أنه قال: «النظرُ إلى الظالمين يطفئُ نورَ الإيمان»، أو كما قال، قال: وكان ينهانا دائماً عن مخالطة أبناء الدنيا، والنظر إليهم، والاجتماع بهم، ويأمرنا بالاشتغال بالعلم، ومخالطة الصالحين.

وسمعت خالي عبدَالله ـ رحمه الله ـ يقول: حضرت مع القاضي الإمام والدِك في دار رئيس الرؤساء، بعد مجيء طغرلبك، وقد أنفذ إليه غيرَ مرة ليحضر، فلما حضر، قَرَّبه رئيسُ الرؤساء، وزاد في إكرامه وإعظامه، وأجلسه حتى مسَّ بعضُه بعضَه، بجنب المخدة، وقال له ما سمعه أهل المجلس: لم يزل بيت «المسلمة» وبيت «الفراء» ممتزجين مختلطين، فما هذا الانقطاع؟ فقال له القاضي الإمام: يروى عن شيخنا إبراهيم الحربي: أنه استزاره المعتضد، وقربه، وأجازه، فردَّ جائزته، فقال له: اكتمْ مجلسَنا، ولا تخبرْ بما فعلنا بك، وبما قابلْتَنا به، فقال له الحربي: لي إخوان لو علموا باجتماعي معك، هجروني، فقال له رئيس الرؤساء كلاماً أسره إليه، ومدَّ كُمَّه إليه، فتأخر القاضي الإمام عنه، وسمعته يقول: أنا في كفاية ودَعَة، فقلت له: يا سيدنا! ما قال لك؟ قال: قال لي: معي شيء من بقية ذلك الإرث المستطاب، وليس مما قد تلوثنا به من الدنيا، فأُحب أن تأخذه، وتصرفه في بعض حوائجك، فقلت له: أنا في كفاية ودعة، أو كما قال.

وسمعت بعض أصحابنا يحكي أنه لما حصب الإمام القائم بالله ـ رضوان الله عليه ـ، وعوفي: حضر الشيخ أبو منصور بن يوسف عند الوالد السعيد، وقال له: لو سهل عليك أن تمضي إلى باب الغربة لتهنئ الإمام بالعافية؟ فمضى إلى هناك، فخرج إليه محمد الوكيل، ومعه جائزة سَنِية، وعَرَّفه شكرَ الإمام لسعيه، وتبرُّكَه بأدعيته، ويسأله قبولَ ذلك، قال: فوالله! ما مسها، ولا قَبِلها، فروجع في ذلك، فأبى، أو كما قال.

وسمعت جماعة من أهلي يحكون: أن في سنة إحدى وخمسين وأربع مئة، لما وقع النهب ببغداد بالجانب الغربي منها، وانتقل الوالد السعيد من درب الديزج إلى باب البصرة، وكان في داره بدرب الديزج خبز يابس، فنقله معه، وترك نَقْلَ رحله؛ لتعذُّر من يحمله، واختار حمل الخبز اليابس على الرحل النفيس، وكان يقتات منه، ويبله بالماء، وقال: هذه الأطعمة اليوم نُهوب وغُصوب، ولا أَطْعَمُ من ذلك شيئاً، فبقي ما شاء الله يتقوَّت من ذلك الخبز اليابس المبلول، ويتقلل من طعمه إلى أن نفد، ولحق الوالدَ السعيدَ من ذلك الخبز اليابس المبلول مرض.

وكان الوالد السعيد في كل ليلة جُمعة يختم الختمة في المسجد بعد صلاة عشاء الآخرة، ويدعو، ويؤمِّن الحاضرون على دعائه، ما أخلَّ بهذا سنين عديدة، إلا لمرضٍ، أو لعذر مستفيض، سوى ما كان يختمه في غير تلك الليلة.

فهذا القدر الذي ذكرته إشارة إلى بعض مناقب الوالد السعيد. ولقد أجمع الفقهاء، والعلماء، وأصحاب الحديث والقراء، والأدباء والفصحاء،

وسائر الناس ـ على اختلافهم ـ على صحة رأيه، ووفور عقله، وحسن معتَقَده، وجميل طريقته، ولطف نفسه، وعلو همته، وزهده، وورعه، وتقشفه، ونزاهته، وعفته، وكان ممن جمعت لـه القلوب؛ فإنـه روي عن محمد بن واسع: أنه قال: إذا أقبل العبد بقلبه إلى الله تعالى، أقبل إليه بقلوب المؤمنين.

* **فلنختم الآن أخبار الوالد السعيد**، الذي مَنَّ اللهُ الكريمُ عليه بعلم الفقه، وتعليمه، وتدريسه، وتصنيفـه أفضل العلوم، وأجـزلها للثواب المقسوم، وأَوْلاها بصرفِ الفكر إليه، ووقفِ الرأي الصائب عليه؛ فإنه العروة الوثقى، والمحجَّة المُثلى، الدالةُ على طاعـة الله ـ جلَّ ذكُره ـ، وأداء مفترضاتـه، والتمييز بـه بين محرَّماته ومحلَّلاتـه، والوقوف على حدوده ومعالمه، وشروطه ومراسمه. وإن رِبْحَه الجنة، وخسرانه النار.

روى أنـس بن مالـك، قال: قال رسول الله ﷺ: «العُلَمَـاءُ أُمَنَـاءُ الرُّسُـلِ عَلَى عِبَـادِهِ مَـا لَمْ يُخَالِطُوا السُّلْطَانَ، ويَدْخُلُوا في الدُّنْيَـا، فَإِذَا خَالَطُوا السُّلْطَانَ، ودَخَلُوا في الدُّنْيَـا، فَقَدْ خَانُوا الرُّسُلَ، فاعتَزِلُوهُم، واحْذَرُوهُم».

وروى ابن عباس، عن النَّبيِّ ﷺ: أنه قال: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً، يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ».

وروى عبدُالله بنُ عمـر، عن النَّبيِّ ﷺ: أنـه قال: «أَفْضَلُ العِبَادَةِ الفِقْهُ، قَليلُ الفِقْهِ خَيْرٌ من كَثِيرِ العِبَادَةِ».

وروى أبو هريرة ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ: أنه قال: «مَا عُبِـدَ اللهُ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ فِقْهٍ في دِينٍ، وَلَفَقِيـهٌ وَاحِـدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ من أَلْفِ عَابِـدٍ، ولِكُلِّ شَيْءٍ عِمَادٌ، وعِمَادُ هَذَا الدِّينِ الفِقْهُ».

وقال أبو هريرة: أن أجلسَ ساعةً، فأتفقَّه، أحبُّ إليَّ من أن أُحيي ليلةً إلى الغَداة.

وروى عليٌّ ﷺ: قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنْبِـيَاءُ قَادَةٌ، والعُلَمَاءُ سَادَةٌ، ومُجَالَسَتُهُمْ عِبَادَةٌ».

وسئل عبدُالله بن عباس عن الجهاد؟ فقال للسائل: ألا أدلك على أفضلَ من الجهاد؟ قال: بلى، قال: تبني مسجداً، وتعلِّم فيه القرآنَ والفقهَ والسنَّةَ.

قلت أنا: ولفضيلةِ الفقه دعا رسول الله ﷺ لعبدالله بن عباس بالفقه في الدين، فقال: «اللهمَّ فقهه في الدين، وعلِّمه التأويل»، فأجاب الله دعاءَ نبيه ﷺ، فوفَّر فقهَه وزكاه، وثَمَرَّه ونَمَّاه، وجعله نوراً يستضاء به، وحجة باقية في عقبه.

فالحمد لله الذي أنعم علينا بأن وفقنا لاتباع الوالد السعيد في أصوله وفروعه، وجَنَّبنا مخالفته، وجعلَنا من ذريته وأهل محبته، وشغلنا بعلومه، وما أتعب نفسه في جَمْعه في ليلـه ونهـاره، وسفره وحضـره، وشبابـه وكبره، من اتباعه السننَ الشرعية، والشعائرَ الدينية، الفارقةَ بين الأبرار والفجار، والحاجزةَ بين الجنة والنار.

أنشدني بعضُ أصحابه وتلامذته:

مَـــنِ اقْتَنَـــى وَسِـــيلَةً وذُخْـــرَ
يَرْجُـــو بِهَـــا مَثُوبَـــةً وأَجْـــرَا

فَحُجَّتـــي يَـــوْمَ أُوفِـــي الحَـــشْرَا
مُعْتَقَـــدِي لِمَـــذْهَبِ ابـــنِ الفَـــرَّا

قلت أنا: ومعتقدُنا ومعتقدُ الوالد السعيد، ومن تقدمه من أئمتنا مبني على حرفين: السكوت عن «لِمَ؟» في أفعاله ﷻ، وعن «كيف؟» في أوصافه ـ تبارك وتعالى ـ، نسأل الله الكريم أن يُزَهِّدنا فيما زهد الوالد السعيد فيه؛ فإنه كان يذم الدنيا، ويأمر بالتقلل منها.

أنبأنا أحمدُ بن علي الخطيبُ: حدثنا عبد الواحد بن المهتدي بالله: حدثنا الحسينُ بن أبي معشر: أخبرنا وكيع، عن المسعودي، عن عمرو ابن مرة، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبدالله: أن النَّبيَّ ﷺ قال: «مَا لِي وللدُّنْيَا؟ إِنَّمَا مَثَلِي ومَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ قَالَ في ظِلِّ سَمُرَةٍ في يَوْمٍ صَائِفٍ، ثُمَّ رَاحَ وتَرَكَهَا».

وروى أبو ذر، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ زَهِدَ في الدُّنْيَا، أَدْخَلَ اللهُ ﷻ الحِكْمَةَ قَلْبَهُ، وأَنْطَقَ بِهَا لِسَانَهُ، وبَصَّرَهُ دَاءَ الدُّنْيَا ودَوَاءَهَا، وأَخْرَجَهُ مِنْهَا سَلِيماً إِلَى دَارِ السَّلاَمِ».

وروى أبو هريرة ﵁، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الزُّهْدُ في الدُّنْيَا يُرِيحُ القَلْبَ والجَسَدَ».

وروى أنس بنُ مالك ﷺ: أن النَّبيَّ ﷺ قال: «مَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ طَلَبَ الآخِرَةِ، جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ في قَلْبِهِ، وجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وأَتَتْهُ الدُّنْيَا وهيَ رَاغِمَةٌ، ومَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ طَلَبَ الدُّنْيَا، جَعَلَ اللهُ الفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وشَتَّتَ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، ولاَ يَأْتِيهِ مِنْهَا إلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ».

وروى أبو موسى، قال: قلت: يا رسولَ الله! الرجلُ يحبُّ القوم، ولَمَّا يلحقْ بهم؟ قال: «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ».

وكان الوالد السعيد ـ نور الله ضريحه ـ قد اجتمع فيه ما رواه ابن عباس، قال: قيل: يا رسول الله! أي مجلسنا خير؟ قال: «مَنْ ذَكَّرَكُمْ باللهِ رُؤْيَتُهُ، وزَادَ في عَمَلِكُم مَنْطِقُهُ، وذَكَّرَكُمُ الآخِرَةَ بِعِلْمِهِ».

وهذا بعض مناقبه وفضائله، وما هو شائع له بين الناس من زهده وعلمه أكثرُ، فأغنانا عن أن نسطره، ولولا أن أكثر من رآه وعاصره، وحضر مجلسه وناظره، قد درج وانقرض، لما ذكرنا هذه الشذرات من مناقبه، إذ كانت تتضمن مدحًنا، والإنسان لا يمدح نفسه.

* ولعل ناظراً في هذا الذي أوردناه وسطرناه، يقول: كيف استجاز مدحَ والده على لسانه، وهو الأصل، ومدحُ الأصل مدحٌ للفرع؟ فنقول: إنما حملَنا على ذلك كثرةُ قول المخالفين، وما يلقون إلى تابعيهم من الزور والبهتان، ويتخرَّصون على هذا الإمام من التحريف والعدوان، وكان لنا في ذلك رخصة، قد سبق إليها الأنبياء والأولياء ـ رضوان الله عليهم وسلامه ـ، فقد قيل: إذا اضطُرَّ الإنسانُ إلى مدح نفسه، فلا بأس

بذلك، قال الله تعالى في قصة يوسف الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الخليل ـ عليهم السلام ـ: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾[يوسف: ٥٥]، وقال النَّبيُّ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ـ عَلَيْهِ السلام ـ ولاَ فَخْرَ، ولِوَاءُ الحَمْدِ بِيَدْي يَوْمَ القِيَامَةِ ولاَ فَخْرَ».

قيل في معناه قولان؛ أحدُهما: يعني: ولا فخرَ أعظمُ من هذا.

وقال عليه السلام: «أَنَا أَعْلَمُكُم باللهِ، وأَخْشَاكُمْ لَهُ».

روي عن بعض أصحابه نحوُ هذا الكلام من المدح للنفس في بعض المواضع التي احتاج فيها إلى ذلك؛ فروي: أن أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضي الله عنه قال لهم حين ادَّعَوا عليه ما هو بريءٌ منه فقال لهم عثمان: لولا أنكم قلتم، لما قلتُ، إني رابعُ أربعةٍ في الإسلام، وزوَّجني رسولُ الله ﷺ ابنتيه، وحفرت بئر رومةَ، وجهزت جيشَ العسرة، وزدت في المسجد، وما بغيتُ ولا تمنيتُ، ولا مسست فرجي بيميني منذ بايعت رسولَ الله ﷺ، ولا زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا مَرَّت بي جمعة إلا وأنا أُعتق فيها نسمةً، إلا أن لا أجد في تلك الجمعة نَسَمَة، فأعتق في الجمعة الأخرى نسمتين.

وأخبرنا الوالد السعيد ـ قراءة ـ قال: أخبرنا علي بن عمر الحربي، قال: حدثنا حامد بن بلال البخاري: حدثنا محمد بن عبدالله البخاري، قال: حدثنا بحير بن النضر: حدثنا غنجار، عن قيس بن الربيع، عن عمرو بن عبيدالله ـ يعني: أبا إسحاق السبيعي ـ، عن عاصم بن ضمرة،

قال: سمعت الحسنَ بنَ عليٍّ رضي الله عنهما يقول على هذا المنبر: إن علياً لم يسبقه الأولون، ولم يدركه الآخرون، والله! ما ترك صفراء ولا بيضاء إلا سبعَ مئة درهم فضلت من عطائه، ليبتاع بها خادماً، والله! إن كان رسول الله ﷺ ليدفعُ إليه الراية، فيقاتلُ عن يمينه جبريل، وعن يساره ميكائيل، فما يرجع حتى يفتح عليه.

وأخبرنا أبو جعفر محمدُ بن أحمد المعدلُ، قال: أخبرنا أبو طاهر المخلص، قال: أخبرنا أبو عبدالله الطوسي، قال: أخبرنا الزبير بن بكار الزبيري، قال: حدثني رجل، عن عبد الرحمن بن موسى بن عبدالله، قال: حدثني محمد بن القاسم ـ مولى بني هاشم ـ قال: بلغ عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ أن ناساً يتناولون أبا بكر ـ رضوان الله عليه ـ، فبعثت إلى أزفلة منهم، فلما حضروا، أسدلت أستارَها، فحمِدت الله، وأثنت عليه، وصلَّت على نبيها ﷺ، وعذلَت وقرعَّتَ، ثم قالت: أبي، وما أبيه؟ أبي والله! لا تَعْطوه الأيدي، ذاك طَوْد مُنيف، وفَرع مَديد، هيهاتَ هيهاتَ! كذبت الظنون، أنجحَ ـ والله ـ إذ كذبتم، وسبق إذ وَنَيتم، سبق الجواد إذا استولى على الأمد، فتى قريش ناشئاً، وكهفُها كهلاً، يفكُّ عانِيَها، ويَريش مُملقَها، ويرأبُ شعبَها، حتى حلته قلوبها، ثم استشرى في دينه، فما برحت شكيمتهُ في ذات الله ﷻ حتى اتخذ بفنائه مسجداً يُحيي فيه ما أمات المبطِلون، وكان ـ رحمة الله عليه ـ غزيرَ الدمعة، وَقيذَ الجوانح، شجيَّ النشيج، فانقصفت إليه نسوانُ مكة وولدانُها يسخرون منه، يستهزئون به؛ ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[البقرة: ١٥]،

فأكبرت ذلك رجالاتُ قريش، فحنت لـه قِسِيَّها، وفَوَّقَت لـه سهامَها، وامتثلوه غَرَضاً، فما فَلُّوا له صَفاة، ولا قصفوا له قناة، ومر على سيسائه حتى ضرب الدين بجِرانِه، وألقى بُركنه، وأرست أوتاده، ودخل الناس فيه أفواجاً، ومن كل فرقة أشتاتاً وأرسالاً، اختار الله ﷻ لنبيه ﷺ ما عنده، فلما قَبض الله نبيَّه، نصبَ الشيطانُ رواقَه، ومدَّ طُنبه، ونصبَ حبائله، وأجلبَ بخيلِه ورجِلِه، فظنت رجال بأن قـد تحققت أطماعُهم ـ ولاتَ حينَ الذي يرجون ـ وأنى والصِّديقُ بين أظهرهم؟ فقام حاسِراً مشمِّراً، فجمع حاشيته، ورفع قطريـه، فردَّ نشرَ الإسلام على غرة، ولـمَّ شعثه بطيه، وأقام أَوَدَه بثقافِه، فامذقرَّ النفاق بوطأتـه، وانتاش الدين فنعشَه، فلما أراح الحقَّ على أهله، وقرر الرؤوسَ على كواهِلها، وحقن الدماءَ في أهبها، أتته منيتهُ، فسد ثلمته بنظيره في المرحمة، وشقيقِه في السيرة والمعدلة، ذاك ابن الخطاب، لله أمٌّ حفلَتْ له ودَرَّتْ عليه، لقد أوحدت بـه، ففنخ الكفرةَ ودنَخَهـا، وشرد الشـرك شَـذَر مَـذَر، وبعجَ الأرضَ وبخعَها، فقاءت أُكلها، ولفظَتْ خبأها، تَرْأَمُهِ ويصدِف عنها، وتَصَدَّى له ويأباها، ثم وزع فيها فيئها، وودعها كما صحبها، فأَروني ما تربؤون، فأيَّ يومَيْ أبي تنقمون؟ أيومَ إقامتـه إذ عدل فيكم؟ أو يومَ ظعنـه وقد نظرَ لكم؟ وأستغفرُ الله لي ولكم.

وقد روي عن إسحاق بن راهويه: أنه قال: سألني أحمدُ بنُ حنبلٍ عن حديـث الفضلِ بنِ موسى؛ حديثِ ابن عباس: أن النَّبيَّ ﷺ كان يلحظ في صلاته، ولا يلوي عنقَه خلفَ ظهـره ـ قال: فحدثتُـه. فقال رجل:

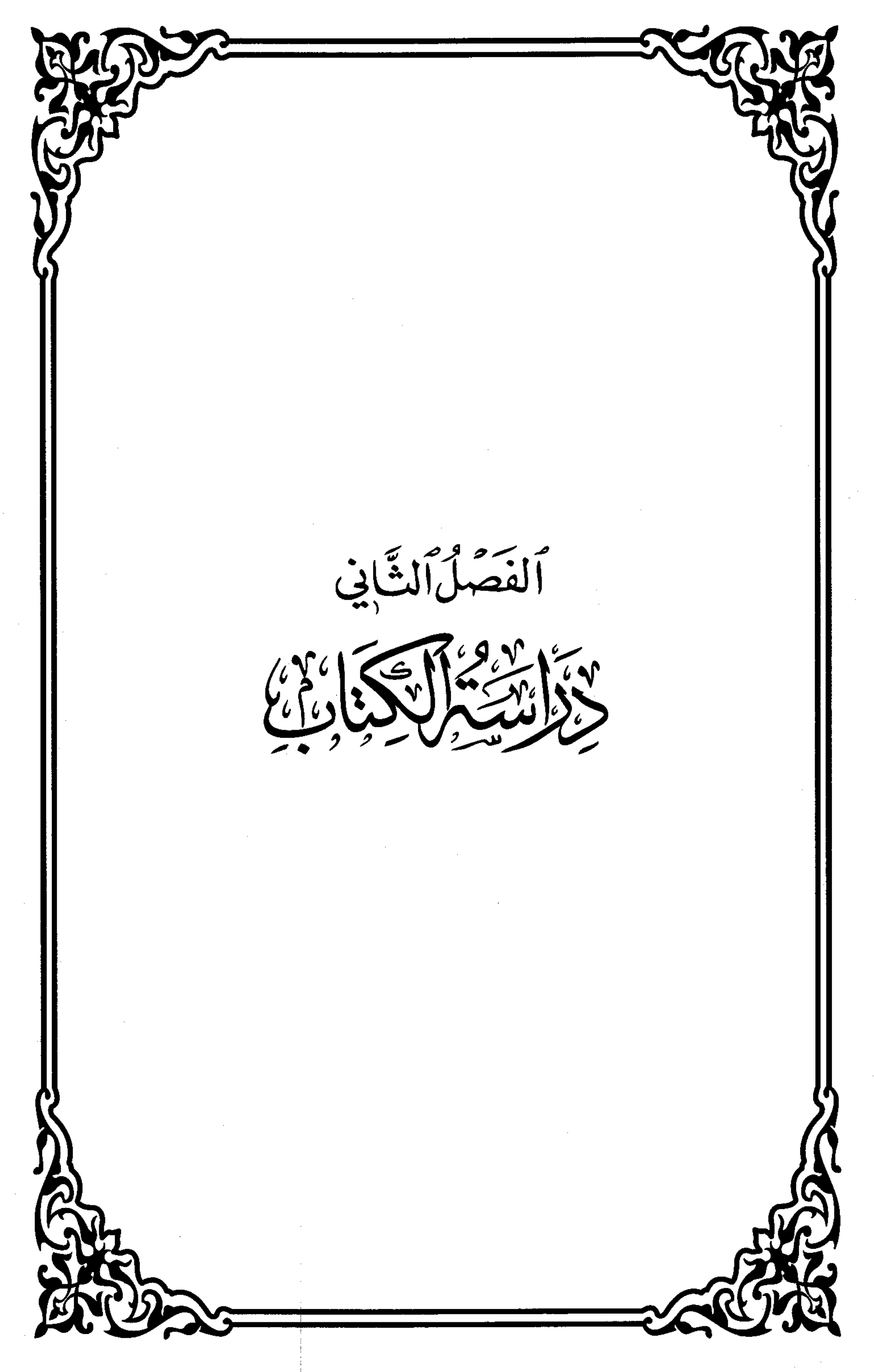
يا أبا يعقوب! رواه وكيع بخلاف هذا، فقال له أحمدُ بنُ حنبل: اسكتْ، إذا حدثك أبو يعقوبَ أميرُ المؤمنين، فتمسَّكْ به.

قلت أنا: فهذا إسحاقُ بنُ راهويه يمدح نفسه، وهذا أحمد قد جعله أميرَ المؤمنين ـ يعني: في الحديث ـ، فأولى لنا أن نذكر والدَنا، ونذكر طرفاً من فضائله ومناقبه، وعلومه وورعه، فهذا خاصة في مدح الإنسان نفسَه إذا احتاج إلى ذلك.

ولولا أن الذين قد جمعوا التواريخ حملَتْهم عصبيتهم وأهواؤهم على ترك فضائله، ونشر مناقبه، لما ذكرنا ما ذكرناه، فلما رأينا الذين قد رأوه، وحفظوا ما سمعوه من فضائله من الشيوخ، وشاهدوا بعض ذلك ينقرضون، والمؤرخون الذين أَرخَّوا قصروا في نشر فضائله، لأجل من يهوى هواهم من المخالفين، آثرنا ذكرَ بعض ما انتهى إلينا من فضائله، فليعذرْنا من وقف عليه، ولا ينسْبنا من الذين يتشبعون بما لم يُعْطَوا، وليسألْ من يثق به من أهل الثقة والمعرفة والخبرة بالقاضي الإمام ـ رحمه الله ـ، ولا يلتفت إلى قول مخالف ومباين بالبدعة، فيعلم أن الذي سطرناه ما استعرنا منه ذلك؛ إذ كان فيه أضعافُ ما ذكر من الفضل والعلم والزهد.

فنسأل اللهَ أن يُحيينا على الإسلام والسنَّة، وأن يُميتنا عليهما، ولا يجعلْ في قلوبنا غلاًّ للذين آمنوا، بمنِّه وكرمه، إنه سميع الدعاء.

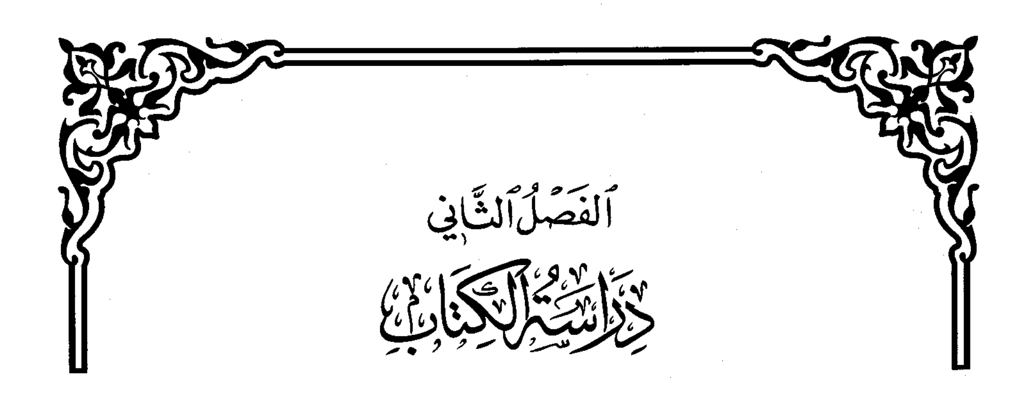
❐❐❐



الفصل الثاني

دراسة الكتاب





الفصل الثاني
دراسة الكتاب

المبحث الأول
تحقيق اسم الكتاب

ـ جاء على ظهر النسخة الخطية لمكتبة فيض الله أفندي بتركيا، والمرموز لها بـ «ت»: «الرابع من التعليقة الكبيرة في مسائل الخلاف».

وجاء على ظهر النسخة الخطية لدار الكتب المصرية، المرموز لها بـ «م»: «الرابع من التعليق الكبير في المسائل الخلافية».

وقد جاء في آخر هذه النسخة: ويتلوه في المجلد الخامس: مسألة: إذا اشترى عبدين، فمات أحدُهما، ثم وجد بالثاني عيباً، وهو أول الجزء الأربعين من «مسائل الخلاف».

ـ وأثبت أبو الحسين ابن القاضي أبي يعلى الحنبلي في ترجمة أبيه من «طبقات الحنابلة»: أن والده صنف كتاباً في مسائل الخلاف، ثم سماه بـ: «الخلاف الكبير».

فهل هو نفس «التعليقة» أو كتاب آخر؟

الذي يظهر لنا أنه نفسه بدليل كلام المرداوي الآتي بالجزم بذلك.

ـ وقد نسب الإمام الذهبي الكتاب لأبي يعلى الكبير في «سير أعلام النبلاء»، وسماه: «التعليقة الكبيرة»، لكنه في «تاريخ الإسلام» نقل كلام أبي الحسين وتسميته.

ـ وقد نقل المرداوي في «الإنصاف» في مواضع عدة من مصنف الإمام القاضي أبي يعلى، وسماه: «الخلاف الكبير»، وأحياناً: «التعليق الكبير». وقال في مقدمة «الإنصاف»: فمما نقلت عنه من المتون: «الخرقي»... ومعظم التعليقة، وهي «الخلاف الكبير»[1].

ونقل عنه في «تصحيح الفروع، وسماه: «التعليقة الكبيرة».

ونقل الإمام يوسف بن عبد الهادي الحنبلي المتوفى سنة (٩٠٩هـ) في مواضع من الجزء الثالث والستين من كتابه «جمع الجوامع في الفقه على مذهب الإمام أحمد» عن مصنف القاضي أبي يعلى، وسماه: «التعليق».

ـ وذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» (١/ ٤٢٤)، وقال: «التعليقة في الخلاف» للقاضي أبي يعلى. قال ابن الجوزي: إنه لم يحقق فيها بيان الصحة والمردود.

وقد أثبتنا اسم «التعليقة الكبيرة في مسائل الخلاف»؛ اعتماداً على ما جاء على ظهر النسخة الخطية لمكتبة فيض الله أفندي في تركيا؛ لأنها

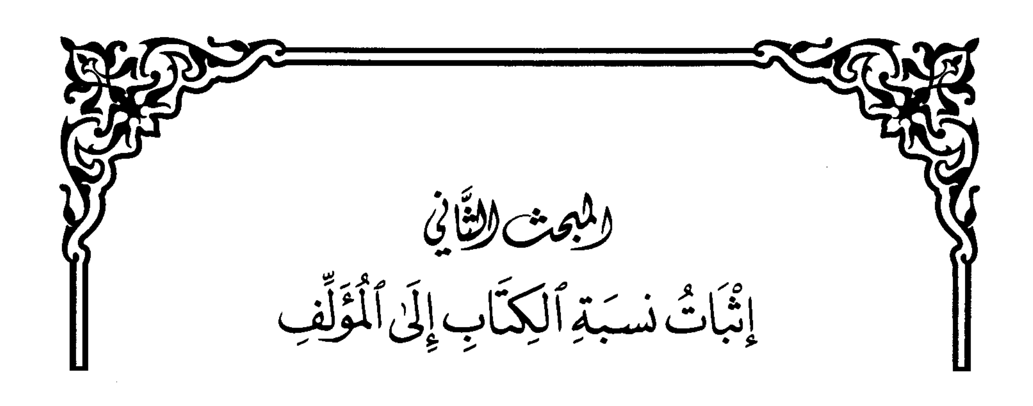
---

(١) انظر: «الإنصاف» (١/ ١٣).

العمدة لدينا في إخراج هذه القطعة، ولأن خط الغلاف يعود إلى تاريخ النسخة، وليس مدخلاً عليها، كما عليها تملك بخط الشيخ ابن المنجَّا المتوفى سنة (٧٤٦هـ)، وهو من أعلام الحنابلة.

إضافة إلى ما ذكر عند غيـر واحد ممن نقل عن هذا المصنف، مع الإشارة أن للكتاب مسميات أخرى صحيحة؛ كـ: «الخلاف الكبير»، كما أثبته ابنه، وهو أعرف الناس به، وغيره.

* * *



المبحث الثاني
إثْبَاتُ نسبَةِ ٱلكِتَابِ إِلَى ٱلمُؤَلِّفِ

١ ـ ثبتت نسبة الكتاب إلى القاضي أبي يعلى الحنبلي في النسختين الخطيتين للكتاب.

٢ ـ نسب أبو الحسين بن أبي يعلى الكبير كتاب «الخلاف الكبير» لوالده ـ كما مرَّ ـ.

٣ ـ ونسب الإمام الذهبي «التعليقة» لأبي يعلى الكبير، فقال في «سير أعلام النبلاء»: أبو يعلى محمَّدُ بنُ الحسينِ بن محمَّدِ بنِ خلفِ ابنِ أحمدَ البغداديُّ، الحنبليُّ، ابنُ الفرَّاء، صاحبُ «التَّعليقَةِ الكُبْرَى»، والتَّصَانيفِ المفيدةِ فِي المذهبِ.

٤ ـ ما ورد في الكتاب نفسه من ذكر بعض معاصري الإمام أبي يعلى، ومنهم: قاضي القضاة أبي عبدالله الدَّامغاني، وأبي بكر الشامي، وهما متقدمان على أبي يعلى الصغير.

أما أبو عبدالله الدَّامغاني، فهو قاضي القضاة، أبو عبدالله الدَّامغاني، شيخ الحنفية في زمانه، بقي في القضاء نحواً من ثلاثين سنة، وقد توفي سنة ثمانٍ وسبعين وأربع مئة.

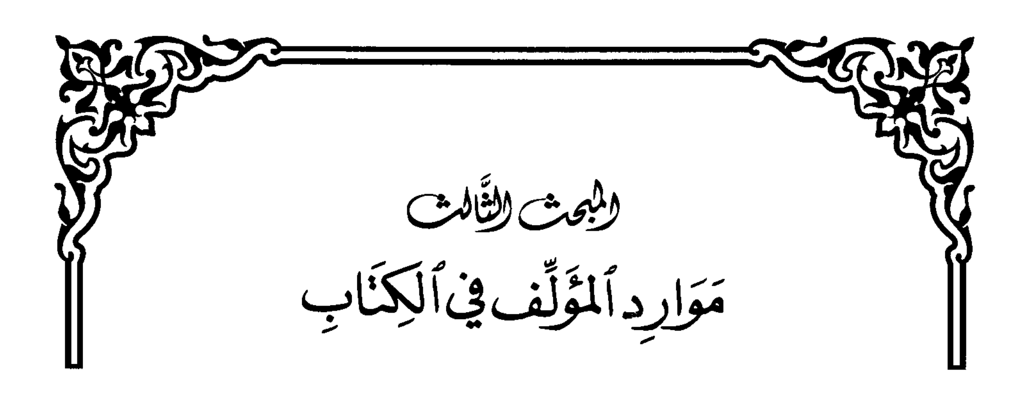
وقد قال القاضي أبـو يعلى في «التعليقة الكبيرة» : وسألت قاضي القضاة أبا عبدالله الدَّامغاني عن ذلك، فقال لي : الفائدة فيه اليمين، وليس تحته فائدة حُكميَّة تختصُّه .

وأما أبـو بكر الشامي، فهو قاضي القضاة، محمـدُ بنُ المظفَّر بنِ بكرانَ، الحمويُّ، الفقيه الشافعيُّ، ولي قضاء القضاة ببغداد بعد موت أبي عبدالله الدامغانيِّ سنة ثمانٍ وسبعين، قال السمعاني : هو أحد المتقنين لمذهب الشافعي، وله اطلاعٌ على أسرار الفقه .

وقد توفي سنة ثمان وثمانين وأربع مئة .

وقد قال القاضي أبو يعلى في «التعليقة الكبيرة» : وقال لي أبو بكر الشامي : مذهبُ الشَّافعي : إن حُصِرَ بعدو، جاز له التحلُّل، وعليه دم؛ سواء شَرط التحلُّلَ في إحرامه، أو لم يشرطْ .

* * *



المبحث الثالث

مَوَارِدِ ٱلمؤَلِّفِ فِي ٱلكِتَابِ

لم يفُصِحِ المؤلف ـ رحمه الله ـ في مصنَّفه هذا عن كثير من الكتب التي نقل عنها ـ على الأقل في القطعة التي بين أيدينا ـ إلا في القليل النادر، وخصوصاً فيما يتعلق بالجانب الفقهي.

وقد أكثر من النقل عن كتب الحنابلة المتقدمة؛ خصوصاً الروايات والمسائل المنقولة عن الإمام أحمدَ ـ رحمه الله ـ، ولعل أهمَّها:

١ ـ رواية الإمام عبدالله بن الإمام أحمد.

٢ ـ رواية صالح بن الإمام أحمد.

٣ ـ رواية حنبل.

٤ ـ رواية المَروذي.

٥ ـ رواية ابن منصور.

٦ ـ رواية إسحاق بن إبراهيم.

٧ ـ رواية الأثرم.

٨ ـ رواية أبي جعفر محمد بن أبي حرب الجرجائي.

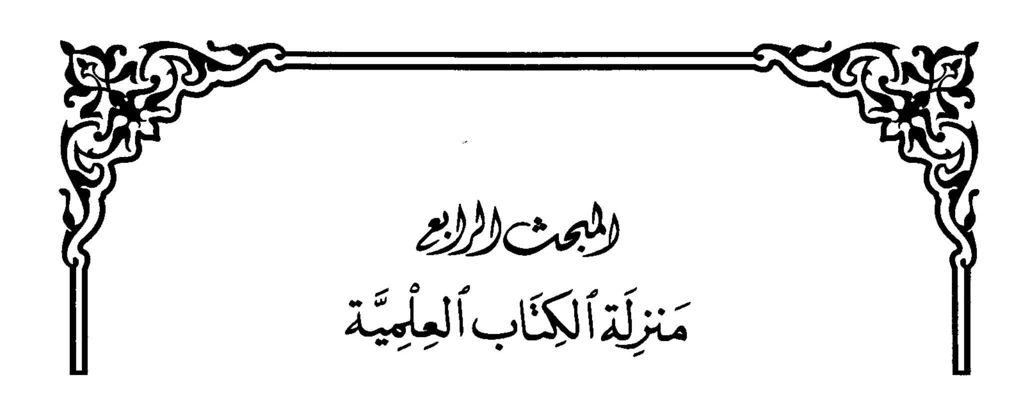
ـ كمـا أكثـر من النقـل عن «مختصر الخـرقي»، و«شرح مختصر الخرقي» لأبي حفص العكبري، و«التنبيـه»، و«الشافي»، و«الخـلاف» لأبي بكر، و«مختصر الحـج» للأثـرم، و«جـزء في فسـخ الحج» لأبي عبدالله بن بطة، و«تعاليق كتاب العلل» لأبي إسحاق.

ـ كما نقل عن «اختلاف الفقهاء» للطحاوي.

ـ ونقل عن كتاب «الاستثناء والشروط في القرآن» لأبي عبدالله بن عرفة، و«تاريخ الحاكم» المسمى: «لوامع الأمور وحوادث الدهور» لأبي إسحاق إبراهيم بن حبيب.

ـ أما احتجاجـه بالحديث، فأكثـر من الاستشهاد بـ «مسند الإمام أحمد»، و«سنن أبي داود»، و«سنن الدارقطني»، و«سنن أبي عبدالله بن بطة»، و«سنن أبي الحسين بن المظفَّر»، و«سنن أبي بكر النجاد»، وأبي حفص البرمكي.

* * *



المبحث الرابع
مَنزِلَةُ الكِتَابِ العِلْمِيَّة

لو كان هذا الكتاب كاملاً، لكان مرجعَ كل فقيـه حنبلي؛ فمؤلفُه إمام مقدَّم، وهو شيخ الحنابلة في عصره، إليه يُرجَع في الرواية والتصحيح والترجيح على مذهب الإمام أحمد، والكتابُ نفسُه نبعٌ استقى منه علماء الحنابلة على مرِّ الزمان، فنقلوا عنه راضين به، مطمئنِّين إليه، حتى إن لقب (القاضي) إذا أُطلق، لم ينصرف إلا إلى أبي يعلى ـ رحمه الله ـ.

وقد أكثر فقهاء الحنابلة من النقل عن كتاب التعليقة هذا؛ كما أشرنا في نقل ابن مفلح، والمرداوي، والزركشي، وابن عبد الهادي، وغيرهم.

ثم انظر شيخَ الإسلام ابن تيمية، وهو في معتقَلِه في مصر يطلب جملة من حوائجه، في مقدَّمها: كتاب «التعليقـة» هذا، فقال ـ رحمه الله ـ: وترسلون ـ أيضاً ـ من تعليق القاضي أبي يعلى الذي بخـط القاضي أبي الحسين إن أمكن الجميع، وهو أحد عشر مجلداً، وإلا، فمن أولـه مجلداً أو مجلدين أو ثلاثـة، وذكر كتباً يطلبها منهم؛ **لتعرف** عظمة ومنزلة هذا الكتاب عند هذا الإمام الجليل.

وتأمَّل قول الإمام الذهبي عن الإمام القاضي أبي يعلى: صاحبُ

«التَّعليقَةِ الكُبْرَى»، والتَّصَانيفِ المفيدةِ فِي المذهبِ.

فإذا تأمَّلتَـه، ورأيـتَ كيف عرَّف إماماً بكتـاب، عرفتَ قيمة هذا الكتاب، وعرفتَ أنه أشهرُ من نار على علم.

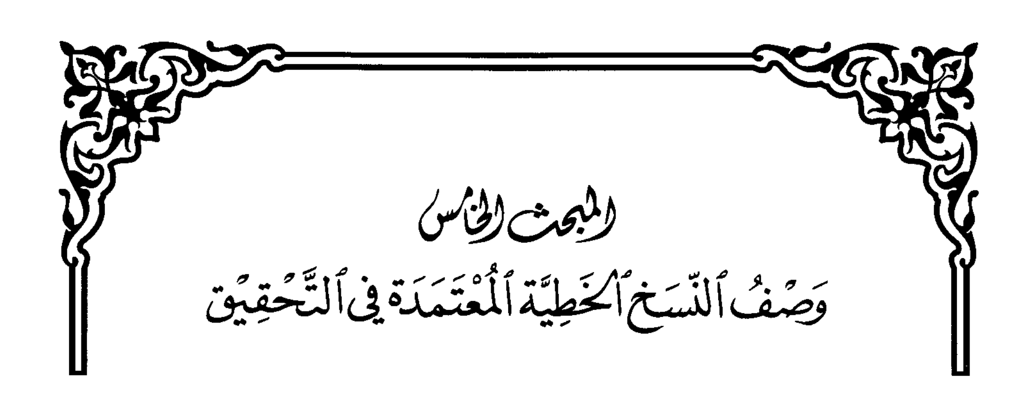
ووصفه العلامة ابنُ بدران في «المدخل» ـ كما مرَّ ـ بقوله: وأجمعُ ما رأيتُه لأصحابنا في هذا النوع ـ أي: فن الخلاف ـ: «الخلاف الكبير» للقاضي أبي يعلى، وهو في مجلدات، ولم أطلع منـه إلا على المجلد الثالث[1]، وهو ضخم، أوله كتاب الحج، وآخره باب السلم، وقد سلك فيه مسلكاً واسعاً، وتفنن في هدم كلام الخصم تفنناً لم أره في غيـره، واستدل بأحاديث كثيرة.

ولقد ضاع معظم هذا السفر النفيس، ولم نقف منه إلا على المجلد الرابع، ولكننا وجدنا فيه من الفوائد ما يحثُّ على نشره، لا سيَّما ما ذكره من روايات عن الإمـام أحمـد لم نجدهـا في شيء ممـا بين أيدينـا من المصادر، كما أن مطالعه يستطيع أن يلتقـط من فوائـده درراً، ويشحذ بمُحاكماته فكراً، ويزداد من فقهه نُبلاً، ومن فيضه علماً.

* * *

---

(١) كذا قال، ولعله سبق قلم، عنى به الرابع.



المبحث الخامس
وَصْفُ ٱلنّسَخ ٱلخَطِيَّة ٱلْمُعْتَمَدَة فِي ٱلتَّحْقِيق

تَمَّ الاعتماد في تحقيق هذه القطعة النفيسة من المصنَّف الجليل على نسختين خطيتين، أولاهما: نسخةُ دار الكتب المصرية، وثانيهما: نسخةُ فيض الله أفندي في تركيا، وهذا وصفٌ لكلٍّ واحدة منهما:

النسخة الأولى:

* نسخة دار الكتب المصرية، تحت رقم (١٤٠) فقه حنبلي، (٦١٣)، وتقع في (٢٨٩) لوحة، في كل لوحة صفحتان، وفي كل صفحة ستة وعشرون سطراً، وفي كل سطر خمس عشرة كلمة تقريباً.

وجاء في آخرها تاريخُ نسخها، وهو سنة (٨٧٠هـ).

جاء على غلافها: الرابعُ من التعليق الكبير للإمام القاضي أبي يعلى.

وجاء عليه تملكٌ لعله للشيخ محمد بن أحمد بن المنجَّا التنوخي، وفيها وقفٌ على طلبة العلم من الحنابلة.

واشتمل على (كتاب: الحج) ـ لعله من أوله كله ـ، وجزءٍ من كتاب: البيوع.

ابتدأ بكتاب الحج من قوله: «مسألة: من شرط وجوب الحج:

وجودُ الزاد والراحلة. . .».

وخُتمت النسخة من (كتاب: البيوع) بمسألـة: «إذا اشترى عبـداً فقتله، أو طعاماً فأكله، ثم ظهر على عيب، رجع بأَرْشه»، ثم جـاء في آخرها: «آخر التاسع والثلاثين. ووافق الفراغ من كتابته في حادي عشرين ذي الحجّـة الحرام، من شهور سنـة سبـع وثمان مئـة، والحمـد للهن والشكر لله بعدد الشفع والوتر، وكلماتِ الله التاماتِ الطيباتِ المباركات، وصلَّى الله على سيدنا محمَّد النَّبيِّ الأميِّ، وآلـه وأصحابه، وعلى جميع النَّبيِّين والمرسلين، والملائكة وعباد الله الصالحين، وغفر الله لكاتبـه، ولمالكه، ولمصنفه، ولجميع المسلمين، آمين، إنَّـه أرحم الراحمين، والحمد لله رب العالمين.

واشتمل هذا المجلد الرابع على عشرة أجزاء من تجزئة المؤلف، كما أثبت في مواضع عدة من النسخة الخطية.

سقط منه ما وجد من مسائل الاعتكاف في نسخة فيض الله، وعدتُها ثلاث عشرة مسألة.

وقد تأثرت هذه النسخة بالرطوبـة والطمس في كثير من أوراقها، وبالبياض كلمات وجملاً في مواضع عدة ـ أيضاً ـ.

وبالتحريف والتصحيف السمجين الثقيلين، اللذين ربما قلَّ نظيرهما في غيرها من المخطوطات الإسلامية، ولعل هذه القطعـة تصلح مثالاً على صعوبة نشر أمثال هذه المخطوطات.

ـ وقد رمزنا لهذه النسخة بالرمز (م).

النسخة الثانية:

* نسخة فيض الله أفندي بتركيا: تحت رقم (٦٩٥)، جاء على ظهرها: الرابع من التعليقة الكبيرة في مسائل الخلاف على مذهب الإمام الأعظم المبجَّل إمامِ الأئمة، وربانيِّ هذه الأمة، أبي عبدالله.

ثم قال: فيه من الأبواب: بعضُ الاعتكاف، وكتابُ الحج، وبعضُ كتاب البيوع المشتمل على مسائل الربا.

* ثم جاء عليه تملُّكٌ كُتب فيه: من كتب الفقير إلى الله تعالى: محمدِ بنِ أحمدَ بن المنجا الحنبليِّ التنوخيِّ[1]، ثم عليه تملكٌ لم يظهر لنا رسمُه جيداً، ولعل تاريخه سنة (٨٦٦هـ).

وعدد لوحاته (٢٣٣) ورقة، في كل ورقة وجهان، وفي الوجه (٢٥) سطراً، وفي السطر (١٢) كلمة تقريباً.

بدايته من مسائل في (كتاب: الاعتكاف)، مسألة: «لا يصح الاعتكاف إلا في مسجد تقام فيه الجماعات...»، عدد المسائل المذكورة في هذا الكتاب (١٣) مسألة، مما يدل على أن خرقاً قد اعترى أولها، كما سقطت الورقات الأولى من (كتاب: الحج) لعلها بمقدار سبع لوحات.

وجاء في آخره: «من اختلافهما في الإصابة: أن القول قول الزوج؛

---

(١) له ترجمة في «الوافي بالوفيات» للصفدي (٢/ ١٠٨) قال فيها: ناظرُ الجامع الأموي بدمشق، وابنُ عم قاضي القضاة علاء الدين الحنبلي، كان جمَّاعة للكتب، اقتنى منها شيئاً كثيراً. توفي سنة (٧٤٦هـ).

لأن المرأة تدَّعي معنًى ترفع بـه القيد، فلم تُقبل دعواها.

وهي عند المسألة (٣٢٧)؛ أي: سقط منها أربـع مسائل، جاءت في النسخة «م».

وهذه النسخة كنظيرتها السابقـة من حيث التحريفُ والتصحيف، وكثرةُ الأخطاء والأسقاط والبياضات في مواضع الكلام، إلا أنها أكثـر وضوحاً من حيث الخط.

ـ وقد رمزنا لهذه النسخة بالرمز (ت).

والذي ظهر لنا أن النسختين: دار الكتب المصرية، وفيض الله أفندي قد نسخت عن أصل واحد، أو أن إحداهما منسوخة من الأخرى؛ فقد ذكـرت في «ت» و«م» جمل مثـل: «آخر الثلاثين من الأصل»، و«أول الجزء الأربعين من الأصل»، ونحوها كثيـر، وهذا يدل على ما ذكرنا، لكن الذي يترجح لدينا: أنهما منسوختان عن أصل واحد، وذلك لوجود بعض السقط في «م» تم تداركُـه في «ت»، وبعض السقط والغلط في «ت» تم تداركُه في «م»، والله أعلم، ومما يدل على ذلك ـ أيضاً ـ: أن ثمـة أخطاء كثيرة تتكرر، فقد جـاء في «ت» و«م»: وهـذه العلَّـة تصـوَّر في ذي الحجة، ثم أُلغيت كلمة (الحجة)، وصححت إلى (الحُليفة)، وقد جاء هذا التصحيح في هامش «ت»، بينما كُتبت الكلمة الصحيحة بعـد الخطأ مباشرة في «م»، ومثل ذلك كثير جداً.

والذي تبين لنا أن الأصل الذي نُقلت منـه النسختـان كثيـرُ الخطأ

والسقط، فقد تكررت أخطاء كثيرة في النسختين معاً، وقـد صححنا من ذلك مواضع كثيرة، وزدنا على النص زيـاداتٍ ضروريـةً، وإذا علمنا أن كثيراً من مواضع الخطأ والسقط تقلب المعنى تماماً، وتُغيـِّر الحكمَ مـع استقامة اللفـظ، فمن حقنـا أن نظن أن الأصـل المنسوخ تعرَّض ـ فيما نظن، والله أعلم ـ لإفساد متعمَّـد، ودليلنـا على هذا: كثرة السقط من النسختين معـاً؛ فإننا احتجنـا لزيـادة (لا) وحدهـا في أزيـدَ من ثلاثين موضعاً، وقد احتجنـا لزيـادة (لا) في ثلاثـة مواضـع من قولـه: وأمَّـا المكاتب، فالمعنى فيـه: أنَّـه ليس بكامـل التصرف على الإطلاقِ، ألا ترى أنَّه [لا] يملك التبرُّعات، والحرُّ بخلافه.

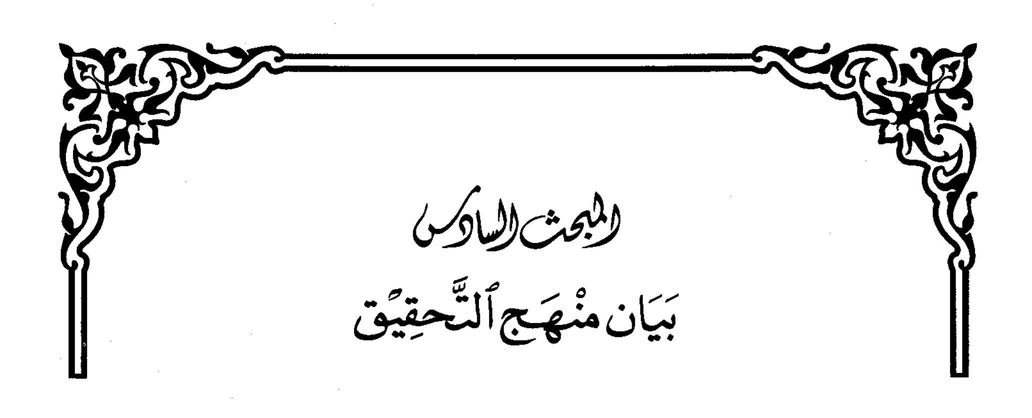
ولأنَّها معاوضة تقضي تمليكاً من الطرفينِ، فإذا زال بها الملك عن أحد المتعاوضين، وجب أن [لا] يزول عن الآخرِ.

واحتجَّ بأنَّه لو زال ملكه، لـم يكنْ له فسخُـه بغير رضا المشتري، وأنه [لا] يجوز تصرف المشتري.

ومن أمثلة ما تعرض له الكتاب من ضرر النسخ: قولـه: وإذا قتلَ الجماعةُ، قُتلوا بهِ، وإن كان مُختلَفاً فيه.

فقد جاء في «م» و«ت»: وإذا قتل الجماعة، قُتـل بهم، وإن كان مُختلَفاً فيـه!!! وقتلُ الإنسانِ الواحدِ الذي يقتلُ جماعـةً من الناس أمرٌ لـم يُختلَف فيه ـ كما لا يخفى ـ.

ومثل هذا كثير جداً يستطيع أن يتتبعه من يطالع الكتاب.



المبحث السادس
بيان منهج التحقيق

١ ـ نسخُ القطعة الخطية بالاعتماد على نسخة فيض الله أفندي؛ لكونِها خاليةً ـ في غالبها ـ من الأسقاط الموجودة في نسخة دار الكتب المصرية، ومشتملةً على مسائل من (كتاب: الاعتكاف) سقطت من نسخة دار الكتب المصرية، وذلك بحسب رسم وقواعد الإملاء الحديثة.

٢ ـ معارضةُ نسخة دار الكتب المصرية بنسخة فيض الله أفندي، وإثباتُ الصواب في متن الكتاب، والإشارةُ إلى خلافه المرجوح، أو الغلط في الهامش.

٣ ـ لما ترجَّح لدينا أن نسختي ـ دار الكتب المصرية، وفيض الله أفندي ـ منسوختان عن أصل واحد كثيرِ الأخطاء والأسقاط، وتكررت أخطاء كثيرة في النسختين معاً، فقد صححنا من ذلك مواضع كثيرة، وزدنا على النص زياداتٍ ضروريةً جداً لا يقوم النص إلا بها، وإذا علمنا أن الكثير من مواضع الخطأ والسقط تقلب المعنى تماماً، وتغير الحكم مع استقامة اللفظ، فمن حقنا أن نظن أن الأصل المنسوخ منه تعرض ـ فيما نظن ـ والله أعلم ـ لإفسادٍ متعمَّد، ودليلُنا على هذا: كثرة السقط

من النسختين معاً ـ ونعني به: سقط الحروف والكلمات، وأحياناً الجمل، فإنا احتجنا لزيادة (لا) وحدها في أزيدَ من ثلاثين موضعاً، ومثل هذا كثير جداً يستطيع أن يتتبعه من يطالع الكتاب، كما أسلفنا، وقد جعلنا كلَّ ذلك بين معكوفتين؛ تمييزاً لها عن الأصل المخطوط، فخرج النص بهذا قريباً من الصواب ـ إن شاء الله تعالى ـ.

٤ ـ ضبطُ ما أشكلَ من الكلام، سواء كان في الحديث، أو المسائل، أو حتى كلام المؤلف بما يزيل الإشكال عند قارئ الكتاب، ويدفع عنه الخطأ والزلل في الفهم واللفظ معاً.

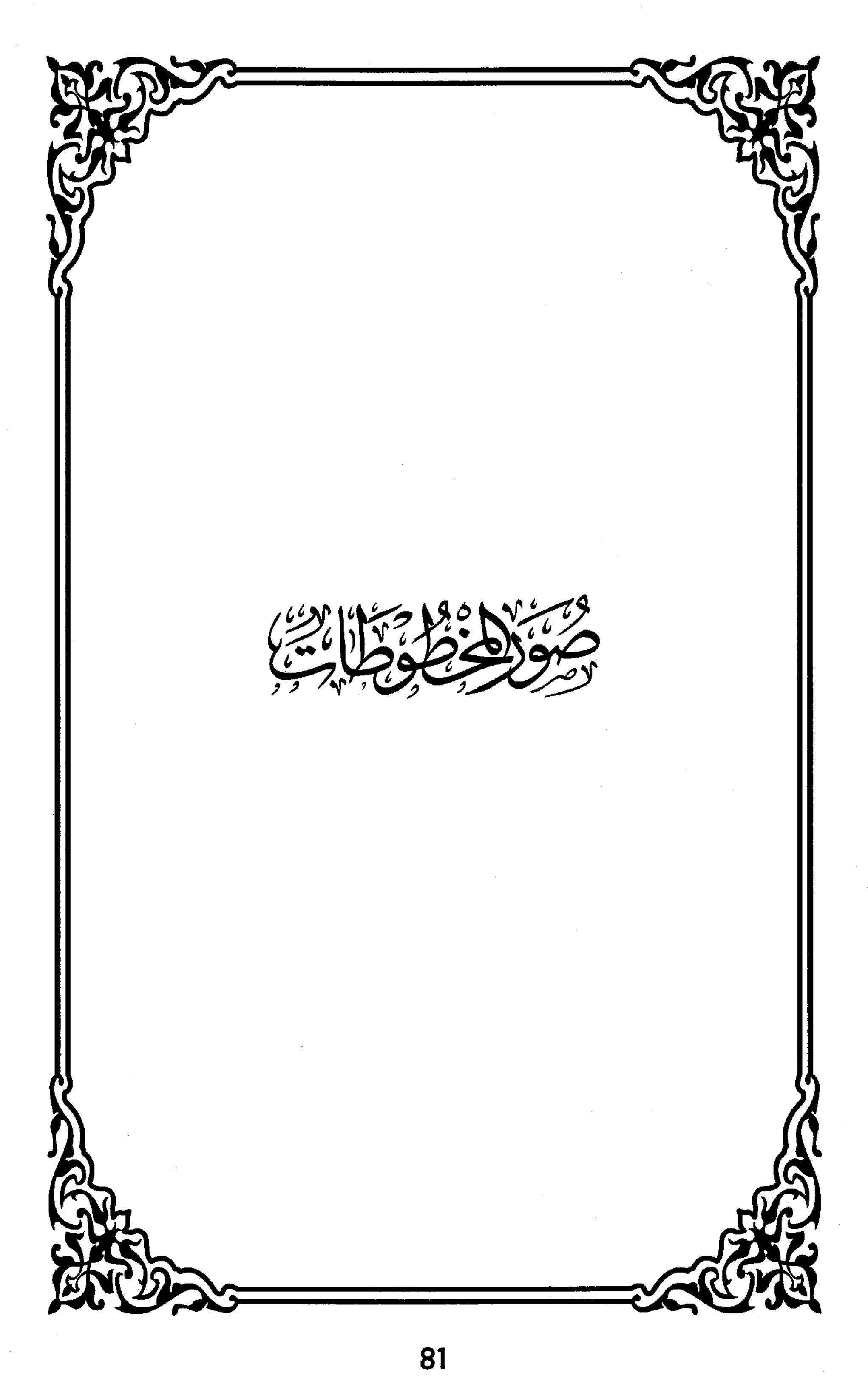
٥ ـ عزوُ الآيات القرآنية الكريمة إلى مواضعها من الكتاب العزيز، وإدراجهُا برسم المصحف الشريف، وجعلُ العزو بين معكوفتين.

٦ ـ تخريج الأحاديث النبوية التي استشهد بها المؤلف ـ رحمه الله ـ على وجه الإيجاز، والالتزامُ بذكر ما يعزوه المؤلف إلى المصدر الذي أخذ عنه، وإلا، فمن «الصحيحين»، أو «السنن الأربعة»، وذلك بذكر رقم الحديث فقط، مع ذكر اسم الراوي إن لم يذكره المؤلف ـ رحمه الله ـ، وإلا، فمن باقي المسانيد، والسنن، والمعاجم.

٧ ـ كتابةُ مقدمة للكتاب مشتملةٍ على ترجمة للمؤلف، ودراسة الكتاب.

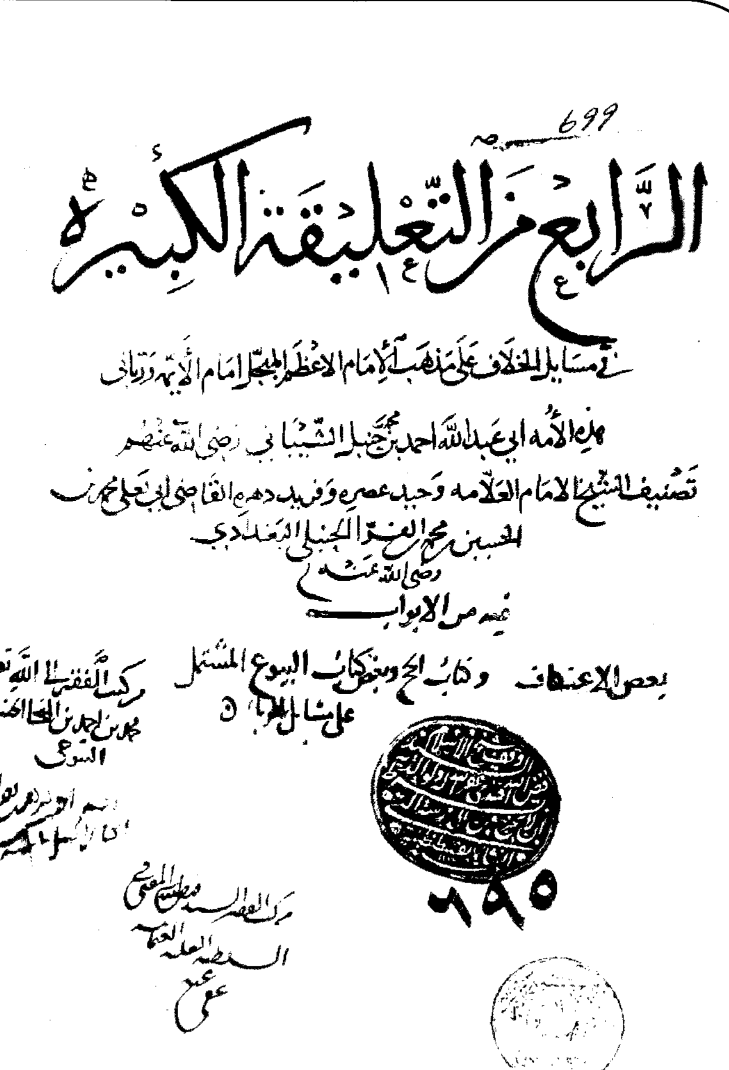
٨ ـ تذييلُ الكتاب بفهرس لرؤوس المسائل الفقهية التي ذكرها المؤلف ـ رحمه الله ـ.

هذا وصلَّى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.



صور المخطوطات





صورة غلاف النسخة الخطية

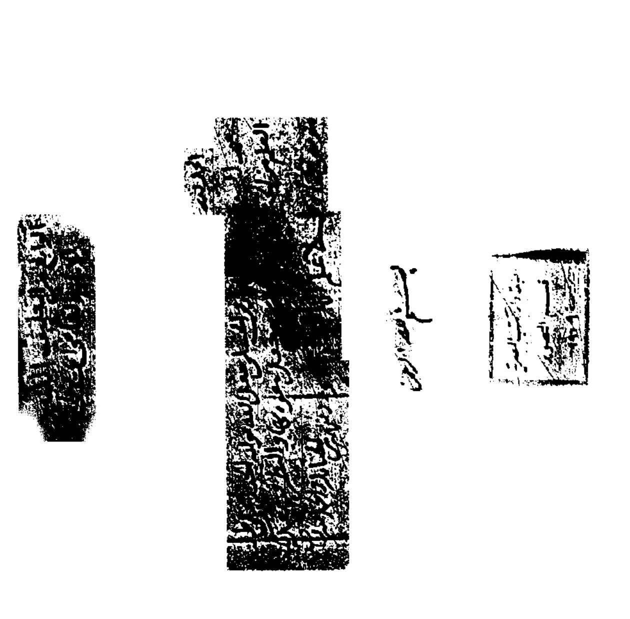
لمكتبة فيض الله أفندي بتركيا، والمرموز لها بـ «ت»

صورة اللوحة الأولى من النسخة الخطية

لمكتبة فيض الله أفندي بتركيا، والمرموز لها بـ «ت»

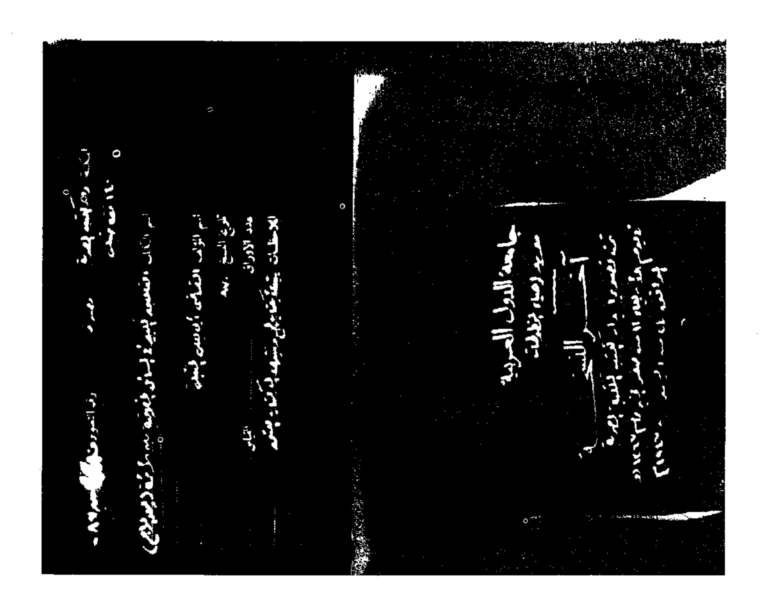
صورة اللوحة الأخيرة من النسخة الخطية

لمكتبة فيض الله أفندي بتركيا، والمرموز لها بـ «ت»



صورة اللوحة الأولى

من النسخة الخطية لدار الكتب المصرية، والمرموز لها بـ «م»



صورة اللوحة الأخيرة

من نسخة دار الكتب المصرية، والمرموز لها بـ «م»